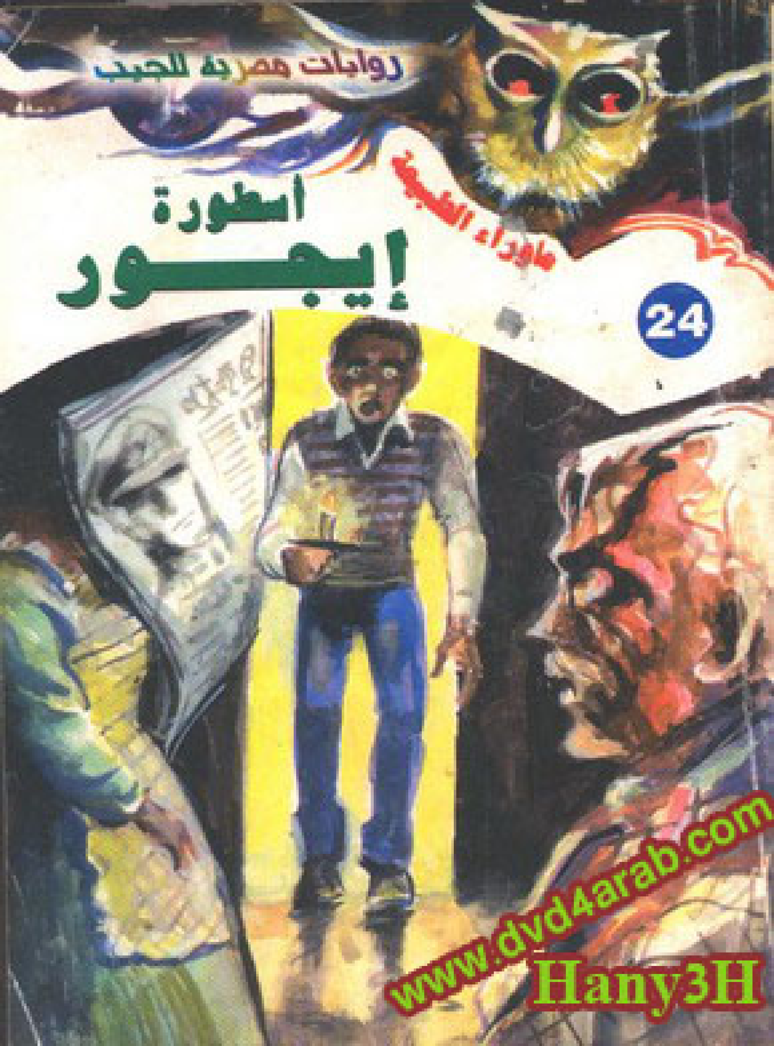


روايات مصرية للجيب
ماوراء الطبيعة
أسطورة
إيجور
24
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

بالأمس قابلت د . (سامى) ..

هل تذكرونه ؟ إن من قرءوا (حلقة الرعب) منكم يذكرون جيداً هذا الطبيب النفسانى المتأنق وزوجته اللطيفة ..

نعم هو ما زال حيًا .. بل هو حىّ أكثر من اللازم إذا صحّ هذا التعبير ..

قابلته فى النادى ، وكان يرتدى (شورتًا) وفانلة ويمارس رياضة (الهرولة) - كما يسمونها هذه الأيام - وكان يجفف العرق بمنشفة على كتفه ..

وتأملته فى فضول .. ما زال اللعين وسيمًا كأنما خُلق لفوره .. وما زال يحب الحياة كهرة صغيرة تقفز فى الشمس ..

- (رفعت اسماعيل) ! ألم يضموك إلى معرض المومياوات بعد ؟

- « (سامى فهيم) ! رجل فى سنك يرتدى الشورت ؟ »

- « إننى اليوم فى السبعين من عمرى ، والفضل لرياضة الهرولة التى لم أكف عنها يومًا .. »

- « وأنا فى السبعين بمعجزة ربانية ولا أعرف كيف »

- « ما زلت تحكى قصصًا مرعبة للناس ؟ »

- « إن الرعب هو ...... هو حياتى وسرّ وجودى ذاته .. ويبدو أننى تحولت إلى شبح أنا الآخر من كثرة ما عايشت ورأيت وسمعت .. »

تأبط ذراعى فى مودة ، واقتادنى إلى مائدة مستديرة فى حديقة النادى ؛ وطلب منى أن أشرب شيئًا .. طلبت فنجانًا من القهوة وطلب هو لنفسه - بالطبع - كوبًا من عصير الفاكهة .. ثم مال ليستند إلى قبضتيه بذقنه ويسألنى فى تؤدة :

- « هلا حكيت لى المزيد من حكاياتك هذه ؟ »

شعرت بأنه يسأل لمجرد المجاملة ، غير راغب فى هذا حقًا .. لكننى ملتزم أمام قرائى الأعزاء .. لهذا سأحكى هذه القصة لهم .. ولهم وحدهم .....

مقدمة لما بعد المقدمة

أعود بكم الآن إلى عام ١٩٦٩ ..

تذكرون أننى - منذ العدد الحادى والعشرين - كففت عن إقحام نفسى فى القصص ، مكتفيًا بأن أحكى لكم كل خطاب مسلٍّ يصلنى من أحد هواة الرعب أو ضحاياه فى أرجاء العالم ...

فى العدد الثانى والعشرين حكيت لكم كابوسًا يونانيًا واجهه أحد العلماء اليونانيين فى (كريت) .. لابد أن خوار (المينوتور) عبر طرقات (اللابيرنث) المظلمة ما زال يدوى فى آذانكم .....

فى العدد الثالث والعشرين حكيت لكم عن رعب المستنقعات الإسكتلندى ، ومأساة أربعة أشخاص سجنتهم الثلوج فى كوخ قديم تلوكه العواصف .. كانت لـ (عزت) جارى حكاية قصيرة طريفة مع هذه المفكرة ، لكنى لن أحكى لكم ما حدث فى هذه المرة .. ربما فيما بعد .. فأنا اليوم بصدد أسطورة جديدة تمامًا) ..

فى العدد الرابع والعشرين أتلقى خطابًا مسليًا .. هو أقرب إلى كراسة صغيرة الحجم كتبت بإنجليزية جيدة ..

كانت هذه الكراسة فى مظروف لصقت عليه طوابع تمثل تمثال الحرية الأمريكى وجواره حرفا U - S ..

استنتجت - بذكائى المعهود - أن هذا الخطاب من الولايات المتحدة الأمريكية .. فلا يمكن أن يكون من (فنلندا) مثلاً ..

وجالسًا فى الصالة رحت أقلب الأوراق بحثًا عن كلمات مشئومة مثل (مصاصى دماء) أو (مذءوب) أو (زومبى) أو (مومياء) أو (لعنة) أو (لقد دبّت الحياة فى الجثة) !

فلم أجد لحسن الحظ ...

هذا - إذن - خطاب خال من الرعب ، لكنه يحوى الغرابة .. غرابة مثل غرابة الكاهن الأخير و (سالم وسلمى) .. فالأمر إذن لا يستأهل قراءة المكتوب عند (عزت) .. يمكننى أن أقرأه هنا فى دارى ...

يبدأ الخطاب بداية ودية حقًا :

« (مانهاتن) فى ٣ - ٨ - ١٩٦٩ » .

« مركز بحوث المخ » .

« إيجور تاركوفسكى » .

« سيدى الفاضل » :

« تابعت - بمزيد من شغف - صولاتك وجولاتك فى عالم (الميتافيزيقا) ، والآراء هنا فى (مانهاتن) تتراوح بين مصدق ومكذّب لك .. لكنك بالتأكيد تثير اهتمامًا لا بأس به ، والمرء يستطيع أن يرفض البروفسور (إسماعيل) أو يقبله .. لكنه - حتمًا - لن يستطيع تجاهله ..

وأنا أرى يا سيدى الفاضل أن خير ما تستطيع عمله هو أن تغدو أنت نفسك مركزًا لتجميع الخبرات الفائقة للطبيعة .. مرجعًا يسترشد به الناس ، ويعرفون خبرات الآخرين ... لهذا قررت أن أكتب لك عن خبرتى فى هذا الصدد .. ولا أبغى منك رأيًا ، فالأمر أكبر من آراء العلماء مجتمعين .. بل أرجو أن تعيرنى سمعك ، وأن تضع هذا الخطاب تحت إمرة أى مهتم بأمور (ما وراء الطبيعة) ..

والآن - وقد أطلت كلامى - أرجو أن أبدأ فى سرد قصتى ، وستكون قصة شائقة تروق لك .. لكنها تبدأ منذ أعوام طوال ...

تبدأ فى (بولندا) فى سنى الحرب العالمية الثانية »

الجزء الأول

(وارسو) – ١٩٤٢

- ١ -

أطلق الجنرال (سيدلتز جابلر) سيلاً من الأوامر الألمانية بدت لمن لا يفهم الألمانية ؛ كأنها مدفع رشاش من المدافع التى يحملها جنوده .. فيض من حروف الشين والخاء انفجر فى جندى المراسلة الذى يمتطى الدراجة البخارية جواره .. فصاح هذا يبلغ الأوامر للآخرين ..

ورفع أحد الضباط جهاز اللاسلكى ليبلغ الأمر إلى رتل المدرعات ، الذى وقف ينتظر البدء فى نفاد صبر حقيقى ...

وفى تؤدة .. أدارت الدبابات مدافعها نحو صف المبانى .. صرير البرج إذ يدور حول محوره .. وأنين الجنازير .. وحوش الدمار العملاقة تدير أعناقها نحو الفريسة .. ببطء .. ببطء ..

وهنا دوت الصيحة التالية من الجنرال ..

وكأنما بانتظار الانفجار شرعت المدافع تهدر .. مرات عديدة بلا توقف .. كأن أبواب الجحيم قد انفتحت .

الهواء نفسه يتذبذب من الصوت .. وحتى الجنرال – بوقاره الآرى العتيد – رفع كفيه المدسوستين فى قفازين

جلديين إلى أذنيه ، ليمنع الصوت من أن يؤذيه أكثر ..

رائحة الموت تعبق الجو ..

وحين انتهى القصف كان صف المبانى المتداعية فى نهاية الشارع قد استحال إلى كتلة من النيران ينبعث منها دخان أسود كريه الرائحة ..

فى رضا رفع الجنرال منظاره المقرب إلى عينيه وتأمل كل هذا الخراب الذى أحدثه ..

كانت مجموعة البيوت هذه نوعًا من الشوكة فى حلق القوات النازية تحول بينها وبين ابتلاع (وارسو) دون ألم .. ويومًا فيومًا صار معروفًا لدى الجميع أن رجال المقاومة البولندية يعيشون فيها ويرسمون خططهم فيها .. ولم يعد مفر من هذا الحل الجذرى ..

وشرع جندى المراسلة يتأمل قائده خلسة فى فضول .

كيف يفكر الجنرال ؟ إن جندى المراسلة البسيط لم ير أشخاصًا كثيرين فى حياته يقومون بتدمير حزام كامل من المبانى ، مما قد يؤدى إلى قتل عشرات الأبرياء .. اليوم أسعده الحظ بأن يرى واحدًا من هؤلاء (العظام) الخارقين للطبيعة .. ربما لهذا صار (سيدلتز جابلر) جنرالا .. إن وجهه جامد كالصخر لا يحمل أى

تعبير من الأسف أو السرور ، أو الترقب .. وجهه يحمل كل كبرياء العسكرية النازية وقسوتها ، ربما لهذا هو القائد .. ربما لهذا ......

راتا تا تا تا تا !.. بوم !.. راتا تا تا تا تا !

صوت طلقات من مدفع رشاش .. هناك فئران لم تزل حية فى هذا الجحر .. فئران مصرة على المقاومة .

التفت الجنرال إلى رتل الدبابات كى يبدأ التقدم ..

وببطء راحت الوحوش تئن وهى تزحف على الأرض التى راح أسفلتها يتشقق من ثقل الجنازير ...

اضرب فورًا .. اضرب فى المكان الصحيح .. اضرب بكل ما لديك من قوة ..

هذا هو شعار الجنرال الذى ينفذه حرفيًا الآن ..

المدافع تهدر فى كرّات متتالية ...

الدخان والتراب القادمان من المبانى المنهارة المحترقة يزكمان الأنوف ، ويجعلان الرؤية متعذرة حقًا .

لكن الدبابات تواصل الزحف .. ووسط الضباب تبدو مثل ديناصورات عتيدة عادت للحياة ..

ومن بين الأتربة لاحت أشباح رجال يحاولون الفرار أو الهجوم لافارق ...

إذ رفع الجنرال كفه آمرًا :

ـ « فليلتحم المشاة .. »

وسرعان ما انطلق الجنود ، ليغوصوا فى بحر الدخان .. ودوى المزيد من الرصاص ..

وارتجف جندى المراسلة ، وتساءل : ترى كيف يكون مذاق الموت فى الصباح الباكر ؟ رائحة النهار الوليد ووجهك ملقى على أسفلت الطريق .. تشم دماء وتعرف أنها دماؤك .. ترمق أظفار يديك عالمًا أنك تفقد وعيك ببطء ، وأنك لن تراها بعد اليوم .. بعد الآن .. تعرف أن صلتك بهذا الجسد تتلاشى .. وأن ...

را تا تا تا تا تا تا !.. بوم !..

المزيد من القتل ...

* * *

الظهيرة تعلن نهاية المأساة ..

انقشع الغبار تقريبًا فلم يبق سوى بؤر محدودة من دخان أسود متناثرة هنا وهناك ، وكان صف المبانى قد زال من الوجود نهائيًا ، على حين يقف صف من الجنود حاملين بنادقهم مصوبة نحو صف من المدنيين البولنديين ، الذين وقفوا مبعثرة شعورهم ممزقة ثيابهم .

لم يتمكنوا من الفرار لأن دبابات الجنرال (جابلر) طوقت الشارع الخلفى أيضًا ..

بعضهم مدنيون أبرياء .. وبعضهم ـ حتمًا ـ ثوار ..

كيف يمكن التمييز بينهما ؟ هذا عسير ..

لكن الجنرال لا يمكن أن يتوقف لدى أمور تافهة كهذه .. إن البرىء لن يضار كثيرًا لو عومل معاملة المذنب ..

لهذا ترون هذا (المترليوز) الذى تم نصبه على عجل .. يمسك سلاحه جندى منبطح على بطنه ، وجواره جندى آخر يعد له شريط الرصاص ..

بعضهم فهم ما يحدث .. وبعضهم لم يشأ أن يفهم ..

قال الجنرال فى سأم وهو يضع معطفه على كتفيه ويشير لجندى المراسلة كى ينطلق بدراجته البخارية :

ـ « اقتلوهم .. وادفنوهم هنا ! »

لم يصدق جندى المراسلة أذنيه ..

حتى وهو يسمع صوت الطلقات لم يصدق ..

حتى وهو يسمع الصرخات لم يصدق ..

حتى حين قرأ تفاصيل المذبحة فى تحقيقات محاكمات (نورنبرج) بعد سنوات طوال ؛ لم يصدق ..

إن تاريخ النازى فى (بولندا) بالذات ملىء بالمذابح ..

وملىء بموضوع دفن القتلى حيث قتلوا ..

لكن السماع عن الوحشية يختلف عن رؤيتها ..

يختلف عن الجلوس على بعد متر من (الدينامو) الذى ولد كل هذه الوحشية .. وأمر بها ..

في مقعده الجانبي يجلس الجنرال مسترخيًا مستقيم الظهر ، وقد أنزل منظار الوقاية على عينيه .. هادئ الضمير كطفل غسل يديه بعد التهام قطعة حلوى ..

ولم يجرؤ الجندي على اختلاس النظر إليه ، بينما محركات الدراجة البخارية تهدر في شوارع (وارسو) .. فقد آمن الآن أن هناك شيئًا خارقًا للطبيعة في هذا الرجل .. إن هذا الذي فعله يفوق قدرات البشر ..

* * *

حين انتهت الضوضاء وانصرف الجنود .. كانت (وارسو) كلها ترتجف خوفًا .. ترتجف غضبًا .. ترتجف ذهولاً ..

وكانت هناك حفرة واسعة جوار الميدان الذي جرى فيه (العمل) ، تم ردمها الآن على عجل .. لكن مغزاها لم يفت على أحد ..

وفي توتر وحذر راح القوم يمشون بين الخرائب التي لم تزل ساخنة ؛ يركلون الرماد هنا وهناك بحثًا عن شيء ما .. أي شيء ..

أحدهم انتابته الحمية فراح يصرخ مرددًا هتافات ضد النازي .. وبعض السباب المشين حقًا ..

بينما تلك المرأة ذات المعطف و (الإيشارب) - والتي تراها في كل المذابح الخاصة بأوربا الشرقية - تولول على صغارها أو زوجها أو أمها أو أبيها ..

هنا صاح أحد الرجال يسكتها ..

- صمتًا يا (آنا) فإنني أسمع شيئًا ما ..

وقف أربعة رجال يرهفون السمع .. فقد خيل لهم جميعًا أنهم يسمعون ما هو أشبه ببكاء طفل .. هلوسة جماعية ؟ لا .. إن هؤلاء الرجال ليسوا من طراز المهلوسين .. ثم إن الصوت واضح بالتأكيد.. من أين يجيء ؟ من هنا ؟ لا .. من هنا .. بل هو هنا حتمًا .

ثمة طفل حيّ تحت هذا الرماد الساخن !.. لا ندري كيف ولا من ؟ المهم أن نخرجه من هنا حالاً قبل أن ينتهي هذا الصوت الوحيد الحيّ وسط الجحيم ...

حاولوا بأظفارهم لكن الغبار كان ملتهبًا فلم يقدروا ..

أحضر أحدهم رفشًا وراح يزيح به الغبار يمينًا ويسارًا ..

أخيرًا رأوا يدًا .. يد طفل مغموسة في الغبار .. لكنها تتحرك .. وبعد دقائق أخرجوا رأسًا أشقر متسخًا يحاول أن يسعل .. وأخيرًا وقف الطفل على قدميه

وبعد دقائق أخرجوا رأسًا أشقر متسخًا يحاول أن يسعل ..

تحمله ثلاثة أذرع .. كان فى أسوأ حال ممكن .. لكنه كان حيًا .. تلك المعجزة التى لم يفهم أحدهم كيف تمت .

إلا أنهم لم يبالوا بما قد يكون فى جسده من كسور ورضوض وشرعوا يتقاذفونه معانقين .. مثل العنقاء التى تولد فى اللهيب يخرج هذا الصبى معلنًا لهم أن (بولندا) لم تمت ..

كان اسم الصبى هو (إيجور) ...

(إيجور تاركوفسكى) ...

* * *



- ٢ -

برغم ولعه بالبصاق والسعال .. برغم رائحة الخمر الرخيصة التى تفوح من فيه طيلة الوقت خاصة حين يقهقه بصوت عال .. برغم قلة نظافته والقمل الذى يزحف بين طيات ثيابه في حرية تامة ؛ يمكن القول إن العم (أندريه) كان رجلاً طيبًا ..

كانت له أسنان نخرة بعضها ولّى إلى الأبد ، وبعضها ينتظر .. وكان له شارب كثّ أشيب يتسلل إلى داخل فمه كلما حاول الكلام ، فكان يطرده بطرف لسانه .

لابد أنه طرد بعض الشعيرات قبل أن يقول لـ (إيجو) :

- « (إيجو) .. إن هذا البلد ملىء بالفرص .. صدقنى .. »

كانا واقفين على ظهر السفينة العملاقة التى تمخر عباب الأطلنطى يرمقان المياه السرمدية ، وكان (إيجور) الصغير يرتدى معطفًا جلديًا حال لونه واهترأ .. وقد دسّ يديه فى جيبيه بينما قلنسوة من الفراء تغطى رأسه الأشقر الصغير ..

على وجهه علامات الألم وأمارات الشقاء .. مريع هو الشقاء الذى يرتسم على وجوه الأطفال الذين رأوا أكثر مما يجب بالنسبة لعمرهم .. حكمة سابقة للألوان على جبينهم .. وزهد فى الوجود لم يحن وقته بعد ..

أما العم (أندريه) فهو عاكف على تجرع سائل كريه من زجاجة صغيرة لا تفارق جيب معطفه ..

وعلى ظهر السفينة تناثر اللاجئون .. رجال ونساء وأطفال أسلم بعضهم عينيه للنعاس .. وبعضهم وقف يرمق البحر بعين ذاهلة شاردة تهاب الغد وتمقت الحاضر ...

طفل يولول فتلقمه أمه ثديًا ضامرًا جافًا ... ورجل يميل على حاجز السفينة ليفرغ ما بمعدته من لا شىء فى الواقع ..

- « إن العالم ملىء بالأوغاد أيها الصبى .. »

يقولها العم وهو يضع كفه المعروقة على كتف الصبى :

- « هيه ؟.. أنت لا تصدقنى يا بن الشيطان ؟.. أنا أعرف ذلك .. إن العم (أندريه) ليس ثملاً أبدًا .. هيه ! دعنى أشد أذنيك الصغيرتين حتى تحمرا .. حينما يقول لك العم (أندريا) إن العالم يعج بالأوغاد فهو يعنى

ما يقول .. إنهم ـ أولاد الخنازير ـ يظنون أننى لا أفيق من السكر .. لكننى أخدعهم جميعًا .. ألاحظ .. وأحلل .. وأفهم كل شىء .. »

ـ « ولكن يا عماه !»

ـ « ولا كلمة !.. خذ عندك هذا المجنون (هتلر) الذى قرر فى لحظة أن يحرق (أوروبا) كلها .. ثم الخنزير (ستالين) الذى قرر أن يحالفه .. لقد اقتسم الغولان ـ النازى والروسى ـ (بولندا) العذراء البائسة .. (تفو) !.. إن الخمر الرديئة تجعلنى أقىء أحيانًا .. لكن أفعال البشر تجعلنى أقىء دائمًا !.. ولكن سترى يا (إيجو) .. سترى ..... »

ويهزّ إصبعه فى وجه الصبى فى إنذار :

ـ « سترى أن (هتلر) لا يؤمن جانبه .. سرعان ما يستدير ليلتهم (ستالين) بدوره .. وعندئذ .. إن شاء الله تأخذنى مصيبة إن لم تعمّ الدماء الأرض .. هيه !.. ويقولون إننى ثمل لا أفقه ما أقول .. بحق العذراء (مريم) لتعمّنّ الدماء الأرض .. »

ثم عاد يسعل ويبصق ....

ويعود الصبى بعينيه إلى البحر ...

* * *

اسمه (إيجور تاركوفسكى) بن (ميخائيل) المدرس بالمدرسة الإعدادية .. سنه اليوم ـ عام ١٩٤٢ ـ خمس سنوات ..

بالطبع هو لا يعرف تفاصيل ما حدث ، وإن كوّن صورة مبهمة عامة عنه من ذكرياته ، وثرثرة العم ، وما قرأه بعد الحرب بأعوام ..

فقط يعرف أنه كان طفلاً كأى طفل آخر .. يلهو ويستمتع بالتخريب وتهشيم الزهريات ودسّ الأجسام المعدنية فى ثقوب الكهرباء .. وفى المساء كانت هناك امرأة لطيفة ما ـ هى أمه حتمًا ـ تجلس على طرف الفراش (لتدندن) له أغنيات ، تتحدث عن الأرانب والغزلان والدببة سيئة الخلق ..

وفى ذلك اليوم كانت أمه تصرخ وتولول .. وراحت تردد دون انقطاع :

ـ « الدبابات !.. لقد حاصروا الحىّ ..! »

لم يفهم كنه كلامها .. لكنه أطل برأسه الصغير من نافذة الطابق السادس ليرى الدبابات الجميلة تقف متراصة كالدمى بعرض الشارع .. صاح فرحًا .. ولم يفهم قط ما الذى يثير الرعب فى مشهد بهذا السحر ..

لكن الأم حملته على كتفها ، وبيد عصبية جذبت أخته (ماريا) ذات السنوات العشر من يدها .. ثم عادت لتضع المكواة والساعة فى كيس قماشى حملته بيدها الأخرى .. وهرعت تقتاد الطفلين فوق درجات السلم نازلين إلى الشارع ..

وكان هناك مكبر صوت يردد بلغة بولندية رديئة :

ـ « إخلاء .. لا نريد أن ...... الشارع .. »

وبرغمها فقدت الأم التحكم فى غازات بطنها .. وبعد ثانية أخرى أسندت رأسها إلى الحائط وأفرغت طعام الإفطار .. ثم هرعت إلى الشارع ...

ورأى (إيجور) آخرين .. رجالاً ونساء يركضون فى هلع .. وكان هناك رجل ذو شارب كث يحمل بندقية .. فرأى جارهم الأصلع (ليسكى) يوقفه فى عصبية صائحًا :

ـ « تخلص من هذه ! إنك ستجلب علينا الدمار ! »

يذكر (إيجور) الأزقة الخلفية وصفائح القمامة التى راحت الأم تبعثرها وهى تنشج وتولول ....

ويذكر الجنود الذين وقفوا جوار دباباتهم شاهرى أسلحتهم باتجاه الفارين عبر الأزقة ..

من ثم صاح القوم فى هلع :

ـ « هذه الجهة مغلقة ! »

هنا بدأ الرعب يزحف إلى روح (إيجور) .. بدأ يئن ثم انفجر فى بكاء هائج متقطع وهو على كتف أمه ..

صاحت الأم وهى تعود أدراجها :

ـ « اخرس !.. إنك تثير أعصابى .. اخرس ! »

لكنه ازداد بكاء على بكاء ..

وهنا بدأ دوى المدافع .. الأرض ترتج وترتج معها قلوب القوم .. ورسم أكثرهم علامات الصليب .. نظرات حائرة شقية ترمق الأفق فى توتر ... و ...

* * *

لماذا لم ينس قط ما حدث ؟

من البديهى أن تكون العبارة التالية هى : ساد الظلام .. ولم أعد أعرف أين أنا ولا ما حدث حتى أخرجونى ..

هنا مع (إيجور) يختلف الوضع ..

فهو يذكر جيدًا كل قطعة قرميد هوت فوقه ، ويذكر أين هوت .. والرضوض التى أحدثتها فى جسده الصغير ... بل هو يذكر مصير كل ذرة غبار تطايرت من ذلك الجدار الذى انهار فوقه هو وأمه وأخته ..

يذكر كيف ازدادت كثافة الصورة ببطء ، ليصير السواد مطلقًا من حوله ، وعندئذ انسحب آخر جزىء من

الأكسجين .. وأحس أنه يختنق ، وأنه عاجز عن الحركة تمامًا ..

هل فقد الوعي ؟ حتمًا حدث هذا .. لكن ذاكرته عن الحفرة والردم تشكل شريطًا واحدًا متصلاً خاليًا من (المونتاج) ... وهو يذكر جيدًا هدير جنازير الدبابات على بعد أمتار من موضعه ..

لماذا لم يمت ؟ لا يدرى .. إن التفسير الوحيد الذى وجده هو أن (أجله لم يحن بعد) .. وهذا حق .. لكن أجل الآخرين كان محددًا .. الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم السبت ٢٠ أبريل عام ١٩٤٢ .. ولم يتأخر الأجل ولم يتقدم ..

أما هو .. فقد وجده الرجال وعادوا به حيًا يرزق ..

* * *

عاش (إيجور) أيامًا عند عمه (أندريه) الذى كان يقيم عند أطراف العاصمة المنكوبة ..

كان الرجل عجوزًا غريب الأطوار ، وكان من هؤلاء الشيوخ الذين أورثتهم الشيخوخة عصبية وسوء خلق .. فكان كثير السباب والشجار ، ولم يكن يثير الشفقة بحال .. لكنه كان طيب القلب حقًا ..

ومنه تعلم (إيجور) درسه الأول فى الحياة .. أن الأخيار ليسوا بالضرورة جميلى الخلقة يرتدون ثيابًا بيضاء وهالة الملائكة فوق رءوسهم .. وليس الأشرار دائمًا وحوشًا ذات أنياب يسيل الزبد من أشداقها ولا تتورع عن ركل القطط ..

* * *

يذكر (إيجور) تلك الأيام الكابوسية .. وجحافل النازيين تمشى فى الطرقات بخطوة الأوز ، حين صار للقمر نفسه شكل الصليب المعقوف .. وحين صار صوت طلقات الرصاص فى الشوارع البعيدة أمرًا مألوفًا .

وكان العم (أندريه) يزداد توترًا وعصبية ، وما انفك يردد فى كل يوم أن :

ـ « هؤلاء الخنازير القادمون من (الراين) سيذبحوننا .. (هيك) !.. سترى يا بن أخى .. سيصنعون ذخيرتهم من كرات عيوننا ! »

ولهذا كان الهروب من (وارسو) ..

من (بولندا) كلها ...

ـ « إن فى الغرب عالمًا جديدًا يا (إيجو) .. عالمًا حرًا بعيدًا عن هذه المذابح .. وإن شاء الله تأخذنى داهية إن لم يرحب بأمثالنا .. »

وعلى ظهر السفينة المتجهة إلى الولايات المتحدة عبر الأطلنطى وقف (إيجور) ذو السنوات الخمس مع العم السكير ، يودع مسقط رأسه الذى أخذه الآريون ..

* * *

أيام كئيبة مرت على ظهر السفينة التى تزاحم المهاجرون المجر والبولنديون فوقها فى العراء ..

كانوا يصطرعون على كسرة خبز أو جرعة ماء أو على فتاة يانعة لم يقتلها الجوع بعد .. دائمًا يصطرعون .

وكانت الطائرات (الميسير – شميت) تحلق فوق رءوسهم فى بداية الرحلة ، فكان الرجال يهللون ويطلقون عبارات السباب .. لكن الطائرات لم تحاول مهاجمتهم لأن أمريكا لم تكن طرفًا فى الحرب بعد ، ولم يكن من مصلحة أحد أن يدعوها للدخول ..

فيما بعد قلت (الميسير – شميت) .. وبدأت طائرات (سبيتفاير) و (ب – ١٧) تظهر فى السماء ..

كانت هذه هى النوارس التى تعلن دنوهم من الأرض .. من الساحل الأمريكى .

* * *

ومن بعيد – وسط الضباب وبين أسراب النوارس المرفرفة المتصايحة – بدا لعينى (إيجور) ذلك العملاق الهائل الذى يحمل الشعلة .. وعلى شفتى

العملاق تلاعبت ابتسامة غامضة متعادلة حالمة لا تفسير لها .. مثل الابتسامة التى سيراها على شفتى (الموناليزا) بعد أعوام ..

– « هذه هى الآنسة (حرية) .. مس (ليبرتى) يا (إيجو) .. وعلى قاعدتها كلمات تقول : إلىّ أيها المتعبون .. فأنا أحمل مشعل الحرية .. إنها تحرس الباب إلى العالم الجديد »

قالها العمّ وأنامله تتوتر على كتفى صغيره ..

أما (إيجو) فقد شعر بالدموع تنساب على خديه ، لا تأثرًا ولكن خوفًا من هذا الصنم العملاق الذى يوشك على الحركة ..

ملحوظة من د. (رفعت) : فيما بعد قدم (يوسف شاهين) مشهدًا لا يُنسى فى نهاية فيلم (إسكندرية ليه) حين دنت الكاميرا من وجه تمثال الحرية ، لنجد أنه وجه غانية ملطخ بالأصباغ .. تغمز بعينها وتضحك ضحكة ماجنة ... يبدو أن (إيجو) كان على حق حين توقع – بحساسية الأطفال – أن أمريكا لن تكون هى الجنة التى يتوقعها العمّ ..) .

والآن ها هو ذا (إيجور) المهاجر البولندى الصغير يدخل إلى الولايات المتحدة .. ليبدأ حياة جديدة مبهمة .

وبذا ينتهى الجزء الأول من قصتنا ..

* * *



والآن ها هو ذا (إيجور) المهاجر البولندى الصغير يدخل إلى الولايات المتحدة ..

الجزء الثانى

(بالتيمور) ـ ١٩٤٧



- ٣ -

الآن تعالوا معي لنرى هؤلاء الصبية الجالسين في الصف يتابعون الدرس ، أو يتظاهرون بذلك ..

دعنا لا نتوقف كثيرًا عند هذين الشيطانين الصغيرين المشاغبين ، وهذه الطفلة الشقراء بارعة الجمال ، ولا عند الصغير الذي يبدو من أصل شرقي ببشرته الصفراء وعينيه الضيقتين ..

أريد منك أن ترى هذا الصبي .. دع الكاميرا تتوقف عنده قليلاً وتستعرض ملامحه .. إنه هو (إيجور) .. نعم !..

لقد كبر .. إنه في العاشرة من عمره الآن .. وهو يبدو في حال طيبة .. وثيابه كذلك مهندمة نظيفة .. لكن نظرة النضج السابق للأوان لم تبرح عينيه ..

وكما قال أحد الأصدقاء لأبيه يومًا :

- « إن هذا الفتى لم يعش طفولة معذبة .. يبدو لي أنه لم يعش طفولة أصلاً ! »

صبرًا .. هل قلت (أبيه) ؟ نعم .. ألم أخبركم بعد ؟ إن (إيجور) ابن بالتبني لزوجين أمريكيين تقدما لمشروع (تبني أطفال المهاجرين الشرقيين) ، وذلك

بالطبع بعد أن مات العم (أندريه) في مصحة لأمراض الصدر .. فقد كان البائس يعاني مرض الدرن .. وعلى كل حال لو لم يمت بالدرن لمات من تليف الكبد الكحولي .. ولو لم يمت بهذا لمات بالتيفوس من جراء القمل الذي يغمر جسده .. لقد كان العم العجوز مستودع أمراض .. وإنها لمعجزة أن يظل حيًا خمسة وخمسين عامًا كاملاً .

تقول المعلمة وهي تقف جوار لوح الكتابة :

- « .. وهكذا يا أطفال خضنا الحرب من أجل العالم الحرّ .. ولولاها لما كنا هنا الآن .. »

ثم نظرت نظرة حازمة ثاقبة إلى الأطفال ، وإن رسمت على شفتيها ابتسامة صناعية لطيفة :

- « والآن .. من يحب الحديث عن الحرب ؟ »

واتجهت عينا الصقر إلى إصبع صغير مرتجف لطفلة :

- « (كارولين) .. حدثينا يا عزيزتي عن ذكرياتك »

نهضت الطفلة ذات الضفيرة الذهبية .. وبصوت مبحوح خجول قالت في تردد :

- « (هتلر) شرير .. بابا قال لي : إن (إيزنهاور) أنقذ حياتنا ، وكل لعبنا التي كان الأطفال الألمان سيأخذونها .. »

ـ « برافوا (كارولين) !.. والآن من يحدثنا بعدها بنفس الفصاحة ؟ آه ! (إيجور) .. قف يا عزيزى وحدثنا » .

هنا حدث شىء ما ...

تردد صوتها فى ذهن (إيجور) .. كأنها تتحدث فى طرقات قصر فارغ من الأثاث والسكان .. الصدى يجلجل فى المكان وهى تقول فى تهكم :

ـ « هيا أيها البولندى القذر .. ماذا تعرف أنت عن أى شىء لتحدثنا عنه ؟! »

منذ ثوان سمعها تقول بينما (كارولين) تتحدث :

ـ « يا للبلهاء الصغيرة !.. تبًا لسخف الأطفال .. أية مهنة بائسة تلك التى اخترتها لأصغى لهذا الهراء ؟ »

كانت تنظر نحوه وعلى وجهها أعتى أمارات اللطف .. وقالت وهى تمد يديها نحوه :

ـ « (إيجور) .. لا تخجل يا ملاكى .. »

نهض ببطء وعيناه لا تفارقان عينيها ..

كان يسمعها تردد :

« ما أغرب أنفه !.. رباه !.. كيف يحمل المرء أنفًا كهذا ويظل له الحق فى الحياة ؟! »

حين وقف (إيجور) كانت أذناه قد احمرتا كالطماطم من فرط الإهانات ..

قال فى عصبية بلغة إنجليزية جيدة :

ـ « أنا لست قذرًا ! وأنفى هو أنفى وحدى ! »

بدا الذهول على المرأة ، فلو كانت قد داست سلكًا كهربيًا عالى الفولت لما ارتسم هذا التعبير على سحنتها .

وتصايح الأطفال .. بعضهم ضحك فى عصبية ، وبعضهم راح يكيل التوبيخ لـ (إيجور) ..

ثوان ثقيلة مضت .. ثم هتفت المعلمة بصوت مرتجف قليلاً :

ـ « سيكون عليك أن تبقى ساعتين بعد الدراسة .. وأن تكتب (سوف احترم المعلمة) مائتى مرة .. »

تعالت الهمسات بين الأطفال ، ولم يكن (إيجور) بحاجة لسماعها فهو يعرف ما سيقال بالحرف :

ـ « إنه مخبول تمامًا »

ـ « كل هؤلاء الأوربيين معاتيه .. »

ـ « لم تطلب منه أن يحضر أبويه .. فهو يتيم تمامًا بلا عائلة » .

ـ « يقولون : إن (هتلر) ذبح أسرته .. »

ـ « يا حرام !.. لهذا جُن .. »

سمع كل هذه الأحاديث بعقله وبأذنه لكنه لم يجد ما يُقال .. لهذا جلس شاعرًا بالحنق .. وتمنى لو أن أهل كل هؤلاء الصبية هلكوا تحت جنازير الدبابات ، ليعرف الصبية فى أى شىء يمزحون ..

* * *

لم تكن هذه هى المرة الأولى ...

منذ أن جاء (إيجور) إلى أمريكا وهو يعرف أنه يملك القدرة على دخول عقول الآخرين ..

لم يسأل نفسه قط عن سرّ حصوله على هذه الموهبة ، بل هو لم يحسبها موهبة على الإطلاق .. حتى إنه ـ بشكل ما ـ كان يحسب الناس جميعًا قادرين على هذا .. ولم يحاول أن يسأل .. لكن هذه الموهبة لم تكن اختيارية ولم تكن طوع بنانه ، أحيانًا كان يجد أفكار من أمامه تلمع ساطعة واضحة فى عقله هو .. وأحيانًا كان يعجز تمامًا عن معرفة ما يفكر فيه الآخرون ..

وحين كانت هذه اللحظة الثمينة تأتى كان يسمع الأفكار فى مكان ما من عقله بصوت صاحبها ، وأحيانًا كان يرى خيالات يدرك جيدًا أنها ليست خيالاته هو ..

كان هذا يثير حيرة الآخرين حين يفاجئهم بما يفكرون فيه قبل أن يقولوه ..

وتدريجيًا أدرك (إيجور) أن هذا هو سرّه الخاص ، وأن عليه ألا يصارح به أحدًا ، وأطلق عليه اسم (الاختراق) ومعناه القدرة على اختراق أذهان الآخرين .. بالطبع ما كان لصبى العشر سنوات أن يعلم أن هناك اسمًا لهذه الظاهرة هو : (الإدراك الفائق للحس) أو (E. S. P)(*) ، وإن كانت موهبته هو بالذات تختلط بنوع آخر من الظواهر هو ظاهرة (التخاطر) أو (التليباثى) .. فهو قادر على أن يصل بأفكاره إلى الآخرين كما هو قادر على التلصص على أفكارهم ..

المشكلة كما قلنا : إن هذا لم يكن خاضعًا لإرادته بحال ، ولم تكن هناك وسيلة مضمونة للتحكم فيما يحدث ..

كان يتجه بعينيه إلى الشخص موضع الفحص .. يركز عينيه على مؤخرة رأسه .. عندئذ إما أن يحدث (الشىء) وتبدأ الخواطر تتدفق إلى رأسه هو .. وإما لا يحدث شىء على الإطلاق .. عندئذ كان يسمى الاختراق (إظلامًا) ..

وبرغم حداثة سنه ؛ بدأ الصبى يعرف عن عالمنا ما يعرفه الحكماء فى سن السبعين ... إن عاشوا ...

(*) Extrasensory perception

إن الناس أشرار أنانيون جشعون إلى حدّ لا يوصف .. ولا يكفون عن الكذب والنفاق والمكابرة .. وكلهم يكذب بجرأة ووقاحة لا تضاهى ...

وزادت هذه الخبرة القاسية من عزلة الصبى وانطوائه وميله إلى الاستماع لا الكلام .. بوجهه الصارم الكئيب الذى هو أقرب إلى وجه عجوز عرف ورأى كل شىء ..

* * *

ويعود (إيجور) إلى داره حاملاً حزام كتبه متدليًا حتى يكاد يلمس الأرض ، ويلقاه كلبه العملاق من طراز (سان برنار) وهو يتواثب ويصدر أصواتًا مختلطة .. فيربت الصبى على ظهره الدافئ ..

فقط مع هذا الكلب عرف (إيجور) معنى صدق العاطفة .. فالكلب لا يفكر بكلمات .. لكن (إيجور) كان ينجح أحيانًا فى اختراقه ، عندئذ كان يشعر بفيض من العواطف الصادقة: اللهفة ـ الفرح ـ الخوف ـ الاستمتاع.

وحين يخاف الكلب لم يكن يتظاهر بالشجاعة ، وحين يفرح لم يكن يدارى فرحته فى كبرياء .. بل كان يتواثب فى كل صوب مبصبصًا بذيله ..

إن الحيوانات لا تظهر أبدًا عكس ما تبطن ، وهذه نقطة فى صالحها دون شك ...

يدخل المطبخ ليجد أمه ـ بالتبنى ـ عاكفة على تقطيع شىء ما بالسكين فى إناء على الموقد ، وهى ـ بالمناسبة ـ حسناء فى الخامسة والثلاثين من العمر لكنها غير ذات رحم .. ولهذا كان التبنى هو الحلّ الوحيد ؛ كى تجد طفلاً تقول له :

ـ (إيجو) .. تأخرت كثيرًا اليوم .. هيه ! ألم أقل لك ألا تدع الكلب يدخل معك إلى المطبخ ؟ هلا غسلت يديك أولاً قبل أن تفتح الثلاجة؟ تبدو لى كأنما قادم أنت من منجم فحم من فورك .. من أين تأتى بهذه القذارة ؟! » .

لم يجب .. كان قد كفّ عن الإجابة منذ زمن .. دخل إلى الحمام فغسل يديه ، ثم دخل إلى حجرته فنزع ثيابه وبدلّها .. ونزل إلى الحديقة ليجد أباه ـ بالتبنى ـ عاكفًا على إصلاح سيارة الأسرة وقد تلوث وجهه ويداه بالشحم ..

ـ « مرحبًا (إيجو) .. سمعت أمك توبخك .. »

ـ « هى دائمًا تفعل .. »

لا تقل هذا ثانية .. أنت تعرف أنها توبخك : لأنها تحبك .

ـ « وفى أغوار ذهنه سمع (إيجور) صوت أبيه :

« يا للأحمق !.. ألا يكفيك ما أنفقه على طعامك وملبسك وأنت لست من صلبى ؟.. لولانا لكنت تتسول الآن فى حوارى (وارسو) ..، لولا هذه الحمقاء التى شعرت بحاجة ملحة للأمومة .. ولولا المعونة التى تقدمها الحكومة لنا ؛ لفضلت أن أتركك لتلتهمك الفئران ..! »

لم يكن هذا أسوأ شىء ...

أحيانًا كان يسمع صوت الأم تقول فى ذهنها وهى تداعبه فى لطف :

« يا لغرابة مظهره وطباعه !.. حيوان نادر .. هذا هو كل شىء .. إن هذا الصبى حيوان نادر جدير بالمشاهدة .. أنا لا أحبه أبدًا ولن أستطيع .. لكننى أقوم بواجبى نحوه تمامًا ولا أحد ينكر هذا ، بل إننى أقدم له أعظم خدمة فى التاريخ .. أقدم له أبوين أمريكيين .. فكيف يتذمر بعد هذا ؟! »

أما عن رأى الزوجين فى بعضهما ، فحدث ولا حرج .. فالزوج يؤمن ببلاهة زوجته .. والزوجة تثق بشراسة زوجها وغبائه ..

ولا يمنع هذا من خروجهما إلى حفلات (الكوكتيل) والمناسبات الاجتماعية حيث يقترح الزوج أنخابًا مبتكرة ، ويتحدث عن أظرف شىء حدث له حين ذهب ليصطاد السمك فى العام الماضى ..

كان الصبى يتذكر ماضيًا مفعمًا بالحنان .. صوت الأم الهامس واللغة البولندية العذبة .. شوارع المدينة المرصوفة بالحجارة ودقات أجراس كنيسة بعيدة ..

* * *

بعد كل هذا يأتى دور (بيل هاكمان) ..

وياله من دور ..!



- ٤ -

هناك رعاع فى كل مكان ، وهناك أوغاد ..

وقد كان (بيل) هذا ..... أ ..... معذرة .. فأنا لا أعرف مفرد (رعاع) .. المهم أنه كان واحدًا من هؤلاء ..

كان يكبره بعامين .. قوى البنيان .. شرسًا .. له تلك الشخصية الكاسحة المميزة للأشرار .. لماذا يكون الشر إيجابيًا دائمًا فى حين يندر الخير الإيجابى ؟!

شخص كهذا - برغم حداثة سنه - يغدو مركز تبلور لمن حوله .. أربعة أوغاد آخرين أضعف شخصية لكن أقرب إلى دناءة النفس يحيطونه دائمًا ..

لهذه المجموعة هدف واحد فى الحياة : جعل الأمور سيئة بالنسبة للضعاف .. التحرش بكل من يريد أن يترك وشأنه .. السخرية وهدم كل ما هو جميل وديع فى الحياة ..

كان كل من يرى (بيل) من الكبار يتوقع له مستقبلاً باهرًا كزعيم عصابة أو سفاح ..

وكان (بيل) - حتمًا - يملك كل المؤهلات لذلك .. فهو أسوأ طلاب الصف ، وأقلهم نيلاً للمديح والدرجات ..

ولهذا جعل شغله الشاغل مضايقة من هم أكثر تفوقًا أو أدبًا أو أكثر أناقة ..

لقد كان أبوه فقيرًا مشاغبًا سكيرًا ، ولهذا كان (بيل) يشعر بالحساسية الربوبية تجاه الأثرياء والمهذبين وكل من يبدو عليه أنه يعيش حياة أسرية هادئة ..

يجذب ضفيرة (مارى) الجميلة المتأنقة .. ويمزق ألبوم (هنرى) الذى يعكس سعادة عائلية .. ويركل (بول) لأنه متفوق فى الصف ..

يفعل كل هذا ويضحك .. ويشعر بسعادة غامرة ..

ومع هذا النوع من الشخصيات (السايكوباثية) - عدوة المجتمعات - لم تكن أية أساليب تربوية تجدى .. سواء اللين أو العنف .. كانت هناك طريقة واحدة هى ربط (بيل) وأمثاله إلى صارى سفينة فى المحيط الهادى ثم نسف هذه السفينة بقنبلة نووية ..

لكن أحدًا لم يجرؤ - طبعًا - على فعل ذلك ..

والآن يا رفاق .. لكم أن تراهنوا على أن (بيل) وجد فى (إيجور) الفريسة التى لم يحلم بها طيلة حياته ..

إن (إيجور) مهذب متحفظ ضعيف متفوق فى دراسته ، ثم هو أجنبى يتيم الأبوين .. كل هذه أخطاء لا تغتفر ويجب أن يدفع ثمنها ...

لن أتحدث هنا عن رمى الكتب على الأرض ، ولا وضع السحالى فى قذاله ، ولا سكب الحبر على سرواله .. بل أتحدث عن تجربة البيت المسكون ..

إن لهذا قصة طويلة دعونى أقصها عليكم الآن ..

* * *

كانت البداية هى تحد ......

هو ذا (إيجور) عائد إلى داره بعد ساعات الدراسة ، حين وجد صف الأوغاد إياهم يسدّ عليه الطريق ..

فكر فى الجرى عائدًا .. لكنه لم يرد أن يسرّهم بجعلهم يفهمون أنهم أثاروا هلعه ...

لذا واصل السير حتى غدا على بعد بضعة سنتيمترات من (بيل) الذى وضع يديه فى خاصرته ، وراح يبتسم فى جشع وخبث ..

لم يكن من العسير على (إيجور) تخيل أنه سيقف يومًا ما بعد عشرين سنه يبتسم تلك الابتسامة وهو يسطو بالسلاح على بنك ..

ـ « هيه .. يا أصفر ! »

و (أصفر) هنا كناية عن الجبن .. لا عن اللون ..

رفع (إيجور) عينين غاضبتين صامتتين نحو خصمه .. وحافظ على ثيابه ...

لكن يد (بيل) كانت أطول من لسانه .. ووجد (إيجور) نفسه يجذب من ياقة قميصه إلى أعلى ليرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات ..

ـ « هيه يا أصفر .. هل تحاول أن تلعبها كالرجال ؟ » .

شرع (إيجور) يحاول التملص .. وراح يسدد بعض لكمات خرقاء لم تصل واحدة منها إلى وجه غريمه ..

وراح الرعاع يقهقهون ساخرين ....

* * *

(راتا تا تا تا بوم !.. راتا تا تا تا بوم !) .

الجنرال النازى ينظر فى ساعته بفتور ، وهو يرمق الدخان الأسود المتصاعد من المبانى .. (هذه الجهة مغلقة !) ..

(اخرس !.. إنك تثير أعصابى .. اخرس !) ..

(إخلاء .. إخلاء !)

(راتا تا تا تا تا ! راتا تا تا تا تا !)

* * *

وأدناه (بيل) من وجهه ليتلامس الأنفان .. وبلهجة رصينة حاول أن يجعلها مرعبة غمغم :

ـ « ليكن معلومًا لديك أننى أمقت الملونين والبولنديين .. وكل أولاد الـ (......) » .

وهنا شعر (إيجور) بأنه يخترق ذهن الصبى .. أفكاره تدوى فى ذهنه بوضوح غير عادى :

« يجب أن أحطمه .. يجب .. لا يبدو سهل الكسر .. لكن كرامتى تتوقف على تحطيمه .. يجب أن أجعله يولول كالفتيات » .

شعر (إيجور) بامتنان لهذا الاختراق الأخير .. فقد أفاده كثيرًا ، وعلم منه أن الصبى يهابه كما يهابه هو .. ليس (بيل) واثقًا من نفسه إلى الحد الذى يحاول أن يبدو به ، لهذا استجمع قواه .. وكل ذرة فى كيانه .. ووجه لكمة قوية مرعبة إلى محجر عين (بيل) ..

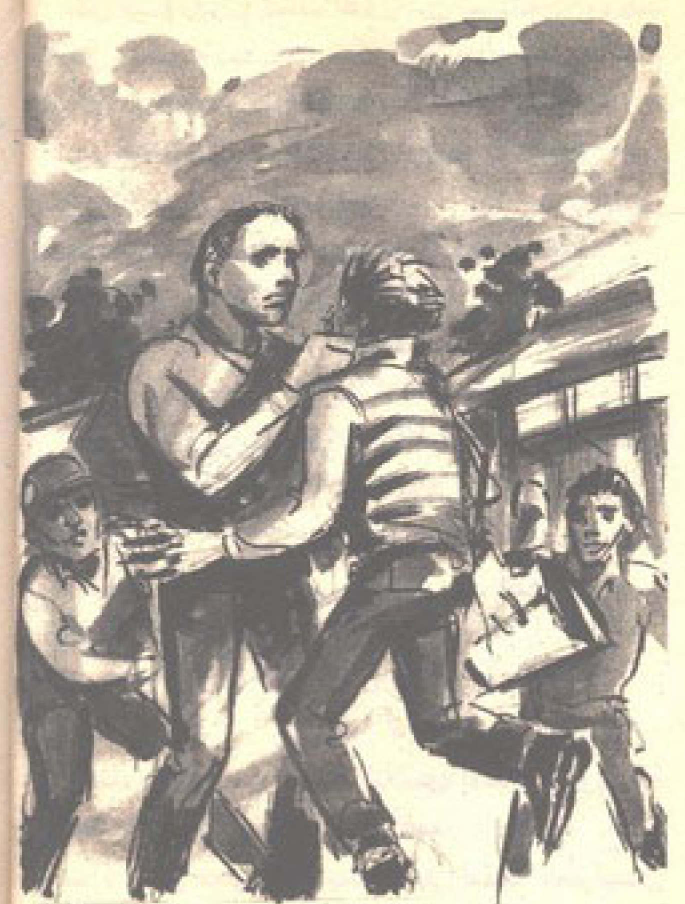
« آى !.. لقد آلمتنى كثيرًا أيها الخنزير! »

لكن (بيل) لم يصرخ .. ألقاه أرضًا وتحسس عينه فى تؤدة .. إن (بيل) يملك قدرة غير عادية على ضبط النفس دون شك برغم كل الصراخ الذى يسمعه (إيجور) فى ذهنه ...

أخيرًا استعاد (بيل) روعه .. فأخذ نفسًا عميقًا .. ثم نظر إلى الذئاب المحيطين به وهتف :

ـ « يا شباب .. قد جرؤ على ضربى .. تصوروا هذا ! لقد جرؤ البولندى على ضرب (بيل هاكمان) ! »

ـ « هوووه ! فلتحرقه حرقًا ! »



ووجد (إيجور) نفسه يُجذب من ياقة قميصه إلى أعلى ليرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات ..

- « سنطعمه للصراصير ! »

رفع (بيل) يده فى وقار وهو يتحسس عينه :

- « لا .. لا .. إن البولندى ولد شجاع .. إنه يملك أحشاء (كناية عن الشجاعة) .. لهذا أرى أن نجربه .. معًا نأخذه إلى بيت آل (كيلى) ..! »

- « مرحى ى ى ى ! »

- « هووووووه ! »

وهكذا يجد (إيجور) البائس نفسه مجرورًا من ثيابه جرًا إلى بيت آل (كيلى) .. البيت المهجور الذى يهابه الجميع فى الجوار ويتحدثون عنه فى تحفظ ..

كان هناك بعض الكبار يمرون فى الشارع ويرمقون ما يحدث .. لكن أحدهم لم يتدخل .. فقط كانوا يهزون رءوسهم فى ضيق مغمغمين : (يا لشباب هذه الأيام) .. أو .. (جيل ملعون) ..

الواقع أن (إيجور) لم يكن ليطلب عونهم أبدًا ، فكرامته تأبى الاستعانة بسلطة خارجية مهما كانت .. ولهذا لم يشك أفعال (بيل) لمدير المدرسة أو لأبويه قط .. لو فعل هذا لكف (بيل) عن مضايقته ، لكن (إيجور) لن يعتبر نفسه منتصرًا .. إنها مشكلته وهو وحده المسئول عن حلها ..

* * *

ويلوح البيت المشئوم لعينى (إيجور) ..

الحديقة غير المعتنى بها منذ أعوام ، والبوابة المغلقة بجنزير وقفل ثقيل ضخم ..

ثم البيت نفسه الجاثم ككابوس عتيق وسط هذه الحديقة ..

كانت النوافذ والأبواب موصدة بإحكام ، وعلامات القدم تلوح على كل شىء .. فمنذ أن فرّ آخر ساكن للبيت وهو يصرخ فى الساعة الثانية صباحًا ؛ لم يعد أحد يجرؤ على استئجار البيت ، وظل اسم الزوجين (كيلى) اللذين قتلا فى هذا المكان منذ عشرين عامًا علامة على البيت ..

(البيت يقترب أكثر فأكثر ...)

كان هذا هو بائع اللبن الذى لاحظ أن هناك عددًا أكثر من اللازم من زجاجات اللبن على الباب ، وهذا معناه أن الزوجين سافرا أو ....

(إن الليل يدنو سريعًا فى هذا الوقت من العام ..) ..

الجيران غير مصدقين .. فالحقيقة التى يعرفها الجميع هى أن (هوارد كيلى) الزوج يعانى من التواء فى مفصل الكاحل ، ومن المستحيل أن يغادر الدار لمدة أسبوعين أو أكثر ... ويتم إبلاغ شرطى الحىّ (جوناثان)

الذى يجد من واجبه أن يحاول رفع نافذة المطبخ .. ثم يثب من خلالها إلى داخل الدار ..

فماذا رأى وماذا وجد ؟

(هلم يا أصفر .. إن البيت ينتظرك) ..

قال المحققون : إن أداة القتل كانت فأسًا .. وإن الجانى قد تسلل إلى البيت من الباب الخلفى ، ووجدته الزوجة أمامها فى المطبخ .. ثم جاء دور الزوج الذى كان جالسًا جوار (الجرامافون) يصغى إلى أسطوانة صاخبة أو أى شىء آخر يحدث ضوضاء لا يسمع الصراخ معها ...

إن الجانى لم يسرق شيئًا .. فهو إذن يندرج تحت قائمة هواة القتل .. أو أن سبب الجريمة كان شخصيًا .

المهم أن الملف قد أغلق إلى الأبد .. لكن البيت لم يغلق ملف القضية بعد ...

(هل تستطيع فتح الباب يا (بيل) ؟)

ومن يومها يرى الجميع أضواء غامضة تتحرك ليلاً .. ويسمعون أصواتًا وضحكات ، وقد نجح البيت فى طرد ثلاث أسر ظنت أنها لا تعبأ بكل هذا الهراء ..

المجانين فقط يجسرون على دخول البيت .. المجانين والبولنديون المغلوبون على أمرهم ..

والآن هو ذا (بيل) يعالج القفل بمطواته ، ثم يزيح الجنزير .. واضح أنه فعلها مرارًا ..

ويدخل الجميع إلى الحديقة التى بدأ ضوء الغروب يغلفها باللون الأزرق الشاحب .. إنها مرعبة لكنها لم تصر رهيبة بعد .. ستكون كذلك بعد ساعتين ... إن الأشخاص الحساسين مرهفى الحس يخافون أكثر من سواهم .. هذا معروف ..

و (إيجور) حساس مرهف الحس ...

لهذا تنتظره ساعات مروعة ....

* * *



- ٥ -

قال (بيل) وهو يشعل لفافة تبغ [إن الصبى فى الثانية عشرة من عمره لكنه كما قلنا آنفا مشروع سفاح] :

- « إليك قواعد اللعبة يا أصفر .. أنت وحدك داخل البيت حتى الصباح .. وبعدها نجىء لتحررك، ونعترف بأن لك أحشاء .. »

فى تحدٍ غمغم (إيجور) وهو يصلح من شأن ثيابه :

- « لن أقبل قواعدك .. وسأعود إلى دارى .. »

نفث (بيل) الدخان فى وجهه ، وناول اللفافة إلى ذئب من الواقفين حوله ليكملها .. ثم قال فى سخرية :

- « ليكن يا أصفر .. كنت دومًا أقولها : إن البولنديين جبناء كفئران .. ستعود لدارك سالمًا .. لكن الناحية كلها ستعرف مدى جبنك غدًا .. »

- « سأشكوكم لمدير المدرسة .. »

- « ها ..! » - قالها فى ثقة - « لن تستطيع لأنك ستكون وقتها كالفتيات اللواتى ما إن يشدّ أحد ضفائرهن حتى يهرعن مولولات إلى أمهاتهن .. أنت لم تنحدر إلى هذا الدرك بعد .. لابد أن لديك بعض الرجولة تحت هذا المظهر الناعم الخامل .. »

كان يقولها وأفكاره تدوى فى ذهن (إيجور) .

« لن يقبل .. أنا أعرف هذا .. إن هذا أقوى منه » .

عندئذ - وعندئذ فقط - رفع (إيجور) رأسه فى شمم .. وحرّر ذراعه ممن يمسكونه ، وقال :

- « كيف تدخل إلى هذا المكان ؟ »

* * *

الأمر سهل يا (إيجور) .. إذ توجد نافذة خلفية واطئة تسرب الصدأ إلى مفاصلها ، فلم تعد تنفتح إلا فى وجود خمسة رجال أقوياء يتعاونون معًا .. ونحن خمسة .. سنفتح لك النافذة لتدخل منها لكننا سنرحل .. وسيكون عسيرًا بل مستحيلاً عليك أن تعيد فتحها .. لا داعى للقول إن كل الأبواب والنوافذ موصدة بإحكام من الخارج ..

« هى هى هى هى ! »

والآن خذ هذه الشمعة وعود الثقاب معك ، بالطبع لن نترك لك طعامًا أو كتبًا تقرؤها ، لأننا لا نتوقع أنه سيكون عندك وقت لأى شىء عدا الصراخ ..

* * *

تسلق (إيجور) حاجز النافذة المغبرّ .. وشعر بخيوط العنكبوت تلف وجهه بشبكة محكمة ، فراح يسعل ويبصق ..

ومن خلفه سمع صوت النافذة تنغلق ببطء .. وبصعوبة .. وإصرار لا يتزحزح من عصابة (بيل) ..

ـ « حظًا سعيدًا يا (إيجور) ! »

ـ « لا تنظر وراءك فلربما كان المنظر مرعبًا ! »

ـ « هى هى !.. لا تستسلم للنوم .. فالنائمون هدف سهل !»

جميع أنواع الضحكات الساخرة : (هى هى) و (ها هاه) و (نيا نياه) و (ياهاااااه) و (هوْ هوْ هوْ) ..

لكن ـ وسط الضحكات ـ يسمع (إيجور) بوضوح أفكار أحدهم تردد فى الظلام :

« لقد وقع فى الشرك .. عند منتصف الليل يأتى دورنا كما حدث مع ذلك المكسيكى فى الشهر الماضى .. »

ظلام دامس فى الداخل .. لكن صبرًا حتى تتعود عيناه .. فليس من الحكمة تبديد الشمعة من الآن ..

لابد أن هذا موعد العشاء فى داره ، لابد أن أمه تتساءل فى حنق عن أين ذهب ذلك الوغد الصغير .. تتساءل فى حنق لكن دون قلق حقيقى ..

فى الصباح ينال بعض صفعات وركلات .. لكنه لن يبوح بسر ليلته .. لقد وعد عصابة (بيل) بذلك ..

كان واثقًا من عدم وجود شىء .. فهو لا يؤمن بالأشباح .. لكنه يهاب خياله الخصب حقًا .. هذا الخيال هو عدوه الحقيقى ..

وكان هذا الخيال قادرًا الآن على جعله يرى ألف شبح ، ويشم ألف جثة متعفنة فى أرجاء المكان ..

لكنه ـ حين اعتادت عيناه الرؤية ـ أدرك حدود الأشياء ، وعرف أنه يقف فى غرفة كرار تتناثر فيها غبار الأعوام ونسيج العناكب .. بمعجزة يتحول هذا الشبح الذى فتح ذراعيه إلى مشجب قائم .. ويتحول هذا الشىء الواقف ينتظره إلى صندوق قديم ....

مشى فى تؤدة بين .

(صرير الأرضية هذا ..!)

قطع الأثاث القديم المهملة ، وثمة فأر إنسلّ مذعورًا من أمامه .. وأخيرًا وصل إلى مقبض الباب فأداره .. المزيد من الصرير .. يوجد مكان متسع أمامه لكنه لا يدرى كنهه .. ربما هو صالة أو ...

(هل هذه حقًا رائحة عطن عادية ؟)

غرفة جلوس ... يبدو أن أوان إشعال الشمعة قد حان ...، أين الثقاب ؟، شريك ! شريك ! الشمعة تتوهج .. و ..

« أخيرًا .. رجل شجاع بعد هذه الأعوام ! »

من قال هذا ؟!..

ثمة من يفكر ها هنا !.. لقد سمع الصوت واضحًا فى ذهنه تمامًا .. ومعنى هذا أن هناك من يفكر فى الحوار ! ولكن من ؟ لا يوجد أحد .. ثم .. ما معنى العبارة ؟

للمرة الأولى بدأ يشعر بالذعر .. شعر رأسه تصلّب .. وتحولت قدماه إلى عودين من المكرونة المسلوقة ..

لكنه واصل التقدم عبر الصالة الواسعة ، ثمة من يقف وراءه ! أدار رأسه فلم ير أحدًا ..

واصل المسير ببطء .. ببطء .. لماذا لا يقبع ها هنا حتى الصباح وينتهى الأمر ؟ لا يدرى .. إن فضولاً جامحًا راح يحركه كى يتفقد البيت .. وليته ما فعل ..

« إنه صغير السن .. لكنه شجاع حتمًا .. »

التفكير مرة أخرى ! تبًا ! هذه البقعة السوداء على الجدار تشبه ما يمكن أن يحدث لو أن هناك من سكب زجاجة حبر .. ولكن .. ألا تفهم معناها ؟ إنها بقايا

دماء .. بقايا المذبحة التى حدثت هنا منذ عشرين عامًا !

أحس بالقشعريرة .. الخوف الحيوانى غير المبرر يتسرب إلى روحه ، فراح يردد بالبولندية لنفسه :

ـ « لن تخاف !.. لن تخاف ! »

كان هذا حين بدأ صوت (الجرامافون) يتردد ..

سمع المقطع الأول من أغنية قديمة تعود إلى عشرينات القرن ، فوثب إلى الوراء مترين ..

ـ « لن تخاف !.. لن تخاف ! »

نعم لن يخاف لأنه خائف بالفعل ..

إن الصوت قادم من القاعة التالية .. كالمسحور يمشى إلى هناك والشمعة ترتجف فى يده فيرسل لهيبها ظلالاً جهنمية فى كل مكان ..

وحين اجتاز الباب رأى جهاز (الجرامافون) العتيق على مكتب أكثر قدمًا ، وقاعة هى أقرب إلى غرفة جلوس واسعة بها أثاث كثير مغطى بالملاءات المغبرة .

وكان (الجرامافون) يدور باعثًا أغنية خشنة الصوت .. لقد كانوا على حق !

يوجد شبح فى هذا البيت ..



وحين تأمله (إيجور) جيدًا أدرك أن رأسه مهشم ..

لو لم يكن هناك شبح فمن هو هذا الكهل الذى يرتدى (روبًا) .. ويجلس على الأريكة يدخن مسترخيًا ؟!

* * *

لم يكن شبحًا ضبابيًا ككل الأشباح التى تحترم نفسها ، بل كان تجسدًا ماديًا كاملاً .. لكنه لم يكن يترك ظلاً .. وحين تأمله (إيجور) جيدًا أدرك أن رأسه مهشم .. وأن خصلات شعره قد اختلطت بالدماء المتجلطة ..

لكن وجه الشبح كان حكيمًا هادئًا .. وكان يرمق (إيجور) بعينين شفافتين صادقتين ..

وتنهد الصبى .. وانتظمت ضربات قلبه ..

برغم كل شىء ليس الأمر مرعبًا إلى هذا الحد ....

ـ « تقدم يا (إيجور) ولا تخش شيئًا .. إننى جالس ذات الجلسة أصغى لنفس الأسطوانة التى كنت أصغى لها حين .. حين توفانى الله .. ومعذرة على عدم نهوضى لك لأن كاحلى يؤلمنى كما تعلم » .

صاح (إيجور) فى هلع وهو يتقدم برغمه نحو الجالس :

ـ « هل .. هل تعرفنى ؟ »

- « إن الأشباح تعرف أشياء كثيرة يا بنى .. وكذلك أنت .. إن لك موهبة الشفافية .. لهذا يصير التفاهم بيننا ممكنًا .. لا كالآخرين ! » .

- « هل كان هناك آخرون ؟ »

- « كثيرون منهم .. لكننا نكتفى بإرعابهم حتى لا يزعجونا .. من الصعب أن يُحكم على المرء بالجلوس هكذا إلى يوم الدينونة ، ثم يكون عليه أن يتحمل فضول الفضوليين وسفه السفهاء .. تكفى المرء مشكلة واحدة فى حياته وبعد مماته .. لكن دعنى أصارحك إننى أمقت الزحام ! »

خطر لـ (إيجور) هنا ما قاله الكثيرون ممن رأوا الأشباح إن الأشباح تبدو حقيقية أكثر من اللازم ، وليس لها هذا الحضور الطيفى الذى تظهر به فى السينما ..

وهنا ظهرت الزوجة ...

قادمة من المطبخ كما هو واضح .. لأنها تلبس (المريولة) وتحمل المغرفة فى يدها .. الظريف هنا هو أنها كانت بدون رأس ! الرأس أطاره الفأس يومًا ما منذ عشرين عامًا .

- « هيه يا (هنرى) !.. يبدو أن لديك ضيفًا ها هنا .. »

- « ضيف غير عادى على العشاء يا (مارى) .. نحن لا نرحب عادة بالضيوف لكن هذا الصبى يختلف .. إنه شجاع وشفاف يا (مارى) .. إنه قادر على مساعدتنا .. »

هتف (إيجور) فى هلع وهو يتراجع خطوة إلى الوراء :

- « أساعدكم ؟.. كـ .. كيف ؟ »

- « بالطب يا (إيجور) .. إن الأشباح مخيفة لكنها لا تملك سوى القليل جدًا مما تستطيع فعله .. إنها تكتفى بالظهور وإطلاق الصيحات .. ربما تحريك الأثاث .. لكنها عاجزة عن فعل ما هو أكثر ..، ونحن فى مشكلة يا (إيجور) .. لقد قتلنا .. وقتلنا بطريقة بشعة .. يبدو لى أنك تعرف الكثير عن الموت برغم سنواتك العشر »

- « أعرف الكثير .. »

صادقًا قالها (إيجور) .. مطرقًا إلى الأرض قالها .

« إن قانون الأشباح صارم يا بنى .. ما دام قاتلنا حرًا طليقًا وحيًا فإن الراحة الأبدية ليست من حقنا .. وعلينا أن نجول فى هذا البيت إلى يوم الدينونة .. »

ـ « إذن .. قاتلكما ما زال حيًا ؟! »

قالت المرأة وخيط من الدماء ينساب من عنقها ليغرق الأرضية ، و (أدرك (إيجور) هنا أن هذا يعود إلى تجدد الذكريات الأليمة فى ذاكرتها) :

ـ « بالتأكيد .. إنه سفاح مخبول يُدعى (جيروم سلفستر) وهو سائق شاحنة يتنقل باستمرار ما بين الولايات .. إنه لم يكف عن ممارسة القتل للتلذذ .. لكنه تعلم شيئًا :

تعلم دفن ضحاياه حتى لا تجدهم الشرطة، وهناك أكثر من عشرين مفقودًا ومفقودة هو المسئول عن رحيلهم »

جلس (إيجور) للمرة الأولى على إحدى الأرائك ، غير مبال بطبقة الغبار التى تكسوها .. وقال وهو يتأمل لهب الشمعة المتراقص ، مفكرًا فى حقيقة أنه يجرى هذا الحوار الوذى مع شبحين لزوجين هلكا منذ عشرين عامًا :

ـ « ولماذا لم تحاولا الوصول إليه للانتقام .. ما دمتما تعرفانه وتعرفان مكانه ؟ »

انتهت الأسطوانة فانسابت الزوجة ببطء إلى مكان (الجرامافون) ووضعت واحدة جديدة .. ثم قالت بصوتها الذهنى :

ـ « قلت لك : إن الأشباح تملك القليل مما تفعله .. وقد تعوّد (سلفستر) على أشباح ضحاياه حتى إنه لم يعد يعبأ بها .. ولم تعد تخيفه .. »

ـ « وأين هو الآن ؟ »

ـ « فى (ألاباما) .. إنه فى الخمسين من عمره .. لكنه بصحة جيدة ، وهو يبحث الآن عن ضحية الفأس القادمة ! »

ـ « وكيف لى أن أساعدكما ؟ »

ـ « سنقول لك كيف .... »

قال (إيجور) وهو يصغى لصوت الأغنية القديمة ينبعث من بوق (الجرامافون) :

ـ « أنا لا أريد صفقة .. لكنى أطلب منكما خدمة مقابل ما سأقدمه لكما .. »

ـ « أى شىء ؟ »

ـ « إن عصابة الأوغاد التى قادتنى إلى هنا عائدة عند منتصف الليل لغرض ما لا أدريه .. سيفعلون معى ما فعلوه مع المكسيكى الشهر الماضى .. هل كان هناك مكسيكى ها هنا ؟ »

دوّى صوت الزوج فى ذهن (إيجور) :

ـ « آه .. لقد فعلوها ثلاث مرات .. إن هؤلاء الصبية لا يؤمنون بوجود الأشباح .. لهذا كانوا يقودون صبيًا منهم إلى هنا ــ مثل ذلك الصبى المكسيكى ــ ويدعونه يقضى ليلته وحيدًا .. وعند منتصف الليل يتسللون إلى داخل البيت لإرعابه .. وثق بأنهم ينجحون فى ذلك ! »

قالت الزوجة فى إشفاق :

« فى المرة الأخيرة قاموا بوضع جوال على رأس هذا البائس .. ثم علقوه إلى السقف بخطاف ، وراحوا يضربونه على أصول فخذيه .. والصبى يصرخ ويولول ظانًا أن الأشباح هى التى تضربه .. يا لها من قسوة ..! »

أضاف الزوج :

ـ « فى الصباح يطلقون سراحه ، بعد أن يصيبه الذعر بنوع من الخبال .. فى العادة يظل صامتًا فلا يعرف منه أحد أى شىء عن ليلته الرهيبة » .

قال (إيجور) فى غيظ وهو يتأمل الغرفة :

ـ « وأنتما ؟.. ألا تتدخلان ؟ »

ـ « نحن لا نبالى بسخافات الصبية هذه .. نحن نهتم أكثر بالعائلات التى تحاول استئجار البيت .. أو المتسكعين الذين يتسللون إلى الداخل .. »

ـ « لكن هذه قسوة ! »

ـ « حين يطير رأسك بالفأس يا بنى .. لا تصير هذه الأشياء قاسية جدًا بالنسبة لك ! »

قالتها الزوجة بلهجة لوم لم تغب عن (إيجور) ..

قال (إيجور) وهو ينهض من على الأريكة ، وقد بدأت الفكرة تختمر فى ذهنه :

ـ « يا سيد ويا سيدة (كيلى) .. أنا بحاجة إليكما لتأديب هؤلاء الأوغاد .. ستكون هذه هى الخدمة التى أريدها ... »

وعلى شفتيه تلاعبت ابتسامة شيطانية ..

* * *

- ٦ -

اضرب فورًا .. اضرب فى المكان الصحيح .. اضرب بكل ما لديك من قوة ..

هذا هو شعار الجنرال ...

راتا تا تا تا !.. بوم !.. راتا تا تا تا !.. بوم !..

« بحق العذراء (مريم) لتعمن الدماء الأرض .. »

« هذه الجهة مغلقة ! »

« اخرس !.. إنك تثير أعصابى !.. اخرس ! »

* * *

منتصف الليل :

أربعة أشباح تدنو من البيت ، يحمل أولها كشافًا صغيرًا .. ويحمل الباقون بضع أكياس ملأى .. الأول هو (بيل) ـ طبعًا ـ الذى يتقدم المسيرة كأنه جنرال نازى يخترق شوارع قرية فرنسية محتلة .. إنه ينوى إثارة هلع البولندى كما لم يحدث طيلة حياته .. سيجعله يبول فى سرواله على حدّ قول (بيل) بلغته السوقية الفظة ..

ـ « (بيل) .. أنا خائف ! »

ـ « صه أيها الأحمق .. كيف تخيف وأنت خائف ؟ »

ـ « إن .. إن المكان مظلم .. يخيل إلىّ أن الأشجار حية تصغى لكلامنا .. »

ـ « حقًا ؟ سأجعلها تحمرّ إذن من بذاءة كلامى !

وبيد عصبية عالج قفل البوابة .. ودلف الأربعة إلى الداخل .. وعلى ضوء الكشاف اخترقوا الحديقة المظلمة حتى وصلوا إلى تلك الفتحة فى جدار المطبخ التى اكتشفها (بيل) ، والتى غطاها بلوح من خشب ..

هكذا يتسللون إلى الدار دون إحداث جلبة ..

قال (بيل) وهو ينزع سترته :

ـ « هل الملاءة معك يا (جو) ؟ »

ـ « نعم .. ورأس المذءوب »

ـ « والجمجمة مع من ؟ »

ـ « معى .. »

قالها أحد الصبية وهو يلوك قطعة من العلكة فى استهتار ..

ـ « والضوء الأحمر والسلاسل مع (سام) .. »

ـ « حتمًا ! »

ـ « حسن .. وأنا معى العصىّ والحبال .. ليكن .. »

ثم تأمل عصابته على ضوء الكشاف .. وغمغم فى قسوة :

ـ « أريد أن تخرجـوا أقذر وأقســى مـا عندكم .. سيكون بابا (بيلى) فخورًا بكم جميعًا .. هيا ! »

* * *

أضاءوا كشاف الضوء الأحمر .. ثم ارتدى (سام) ـ أطولهم قامـة ـ المـلاءة ليغطـى جسـده بالكـامل .. وثبتوا الجمجمة فوق رأسه ولفوها بالملاءة ليبدو كأنـه هيكل عظمى تحرر من أكفانه ..

ـ « كيف أبدو ؟ »

ـ « مروعًا ! »

وعلى ضوء الكشاف الذى يلقى ظلاً أحمر رهيبًا على الأشياء ، بدأ (سام) يتقدم .

(صرير الأرضية هذا ...!)

نحو غرفة الكـرار التـى ـ حتمًا ـ يقبع (إيجـور) فيها يرتجف ... فى نفس اللحظـة وضـع (بيل) قنـاع المذءوب الرهيب علـى رأسـه ... وراح (جو) يحـرك السلاسل محدثًا ذلك الصـوت المعدنـى الكئيـب الـذى يزعمون أن الأشباح تحدثه ..

لا شىء .. المنزل مظلم كالقبر .. صامت كالضريح .

تساءل ذو العلكة الذى حمل الكشاف فى يده :

ـ « أين هو ؟ »

قال (بيل) فى عصبية وقد صـار صوتـه مكتومًـا ، من وراء قناع الذئب الذى يخنقه خنقًا :

ـ « فلنتفرق .. ليبحث كل فى اتجـاه .. وأرجـوك أن تبصق هذه التى تلوكها حتى لا أهشم أسنانك ! »

وبدأ الأوغاد يتفرقون ...

غيـر ناسيـن ـ طبعًـا ـ أن يطلقوا الكثيـر مـن الـ (هووووه) والـ (ووووه) بصوت جنائزى مكتوم ..

كان (بيل) هو أول من دخل غرفة المعيشة ..

هنـاك رأى (إيجور) متكومًا جوار الشـمعة علـى الأريكة ، فبدأ كقط تعس وحيد .....

من خلـف قنـاع المذءوب ابتسـم (بيـل) ابتسـامة شيطانية .. وتقدم بتؤدة نحو ..

(رباه !.. إن هذا القنـاع يلهـب للوجـه بـالعرق) الجسد الممدد على الأريكة ..

راح يتلـوى .. ويحـرك جسـده بعصبيـة مصـدرًا الأصوات التى يُفترض من المذءوب أن يصدرها ..

سيكون مرعبًا على ضوء الشمعة القادم من أسفل .. الضوء منخفض المستوى يعطى تأثيرًا شيطانيًا .. الكـل يعرف هذا ..

وهنا رأى الرأس يرتفع ببطء .. كان مهشمًا تمامًا والدم المتجلط يغمره ..
عندئذ أدرك ـ متأخرًا جدًا ـ أن هذا ليس (إيجور) .
* * *
(سام) يتحرك فى ملاءته وهو يبصر طريقه مستعملاً الثقبين الموجودين أمام عينيه ..
كان يستعمل كشافًا صغيرًا ، لأن (توماس) حامل الكشاف الأحمر يبحث فى مكان آخر ..
لا يوجد أثر لهذا البولندى .. هذه هى غرفة المكتب لا أرى أحدًا .. فلنجرب غرفة أخرى ..
وهنا رأى أمامه سيدة فى منتصف العمر تسدّ الطريق عليه .. كانت ترتدى مريولة المطبخ .. لكن وجهها القسيم ينمّ عن طيبة ورقة لاشك فيهما ..
أجفل ثم هدأ قليلاً وتراجع للوراء خطوة ..
ـ « أنت أيها الشاب قد أفزعتنى .. لماذا ترتدى هذه الثياب المخيفة ؟ »
استجمع كلماته ليغمغم فى رهبة :
ـ « مـ ... من أنت ؟ » .
ـ بل من أنت أنت ؟ ومن أين جئت بهذه الجمجمة ؟ »
قال لها وهو ينزع الملاءة عن رأسه :



من خلف قناع المذءوب ابتسم (بيل) ابتسامة شيطانية .. وتقدم بتؤدة نحو ..

- « أنا (سام) .. وهذه الجمجمة مجرد دعابة .. »
ورفع الجمجمة من على رأسه ليقدمها لها ..
(ثمة شىء غير مريح فى كل هذا .. من هذه المرأة)
هنا قالت المرأة فى رقة وهى تقبض على خصلات شعرها :
- « حقًا ؟.. أنا مسرورة لذلك لأن هذا الرأس أيضًا مجرد دعابة ..! »
قالتها وانتزعت رأسها من فوق كتفيها ..

* * *

أما عن (جو) فهو يمشى محركًا السلاسل فى يديه ، وفى فمه كشاف صغير يتفقد به المكان ..
إن هذا المكان مخيف حقًا .. لا غرابة أن يرى الناس فيه أشباحًا من كل .... نوووووووع !
حمدًا لله ! ليس هذا شبحًا .. إنه (سام) .. يا له من تنكر متقن ! إذن فالبولندى ليس فى هذا القطاع ..
ليت (بيل) ينسى الأمر برمته ويدعوهم إلى الرحيل
دنا من (سام).. وتثاءب .. ثم قال بعدما نزع الكشاف من فمه :
- « إن منظرك مفزع بالفعل .. هل وجدت شيئًا ؟ »
لا ردّ ...

- « (سام) .. تكلمْ .. أنا خائف بالفعل فلا تحاول زيادة رعب ... »
لا ردّ ....
هنا تقدم من الملاءة وأزاح طرفيها ليرى ما بالداخل ..
وبينما هو يفعل ذلك تذكر شيئًا .. شيئًا مخيفًا ...
إن الملاءة التى جاءوا بها كانت نظيفة .. أما هذه فهى مغبرة ملأى بالبقع .. معنى هذا أن ....
تذكر هذا وهو يفتح الملاءة ليرى ما بداخلها على ضوء الكشاف ....

* * *

الآن نجىء إلى (توماس) حامل الكشاف الأحمر الذى أعاد العلكة إلى فيه وراح يلوكها وهو يتفقد المكان فى لا مبالاة .. كان يحب العلكة لأنها تعطيه طابعًا من الاستهتار .. والرعاع يجب أن يكونوا مستهترين ..
حينما دلف إلى قاعة الجلوس كان ما رآه يفوق الوصف ..
كان زملاؤه (سام) و (بيل) و (جو) ممددين فوق الأرائك المغبرة ، وقد بدوا أقرب للموت منهم للحياة ...
دنا منهم مذعورًا ، ليتفحصهم على ضوء الكشاف الأحمر ؛ حين فوجئ بشخص يقف جواره .. جواره ..

كان عجوزًا يرتدى الروب وقد تهشم أكثر جمجمته ، واختلط الشعر الأشيب بالدم المتجلط ...

احتبس الصراخ فى فمه ، وانحشرت العلكة فى حنجرته ..

قال العجوز وهو يشير إلى الباب فى صرامة ، بصوت غير قادم من هذا العالم :

- « هؤلاء رفاقك على ما أظن .. غادروا بيتى حالاً .. ولا تعودوا ها هنا أبدًا ! »

لم يدر الصبى ما يحدث ..

يذكر أنه كان يركض نحو الباب جارًا (بيل) من ذراعه ، وقد أراح رأس (جو) الأشعث على صدره ، وأن (سام) كان يسير كالزومبى معدوم الإرادة نحو الباب الذى انفتح فجأة ..

وابتلعهم الظلام ......

وأخيرًا عاد الهدوء ....

لا شىء سوى صوت ضحكات هستيرية تصاعدت من حلق (إيجور) وهو يخرج من مكمنه .. لقد لقنوا هؤلاء الأوغاد درسًا قاسيًا .. أقسى من اللازم فى الواقع لأن دورية الشرطة ستجدهم بعد ساعتين يهيمون

على وجوههم ذاهلين فى شوارع الحىّ .. ولسوف يسفر استجوابهم عن فقدان ذاكرة جزئى ، فلا أحد منهم يعرف أين كانوا ولا ماذا كانوا يفعلون فى هذه الساعة .

لقد نال كل من هؤلاء عقدة حياته التى ستبدل مجرى شخصيته إلى أن يموت ، وبالتأكيد لم يبق واحد منهم كما هو بعد هذه التجربة ..

لقد غزا وجوههم ذات التعبير المرير-الكئيب الذى يغزو وجه (إيجور) ....

تعبير من عاش أقسى تجاربه ...

* * *

قال (إيجور) ضاحكًا :

- « لقد نالوا جزاءهم .. » .

قال الزوج وهو يعود لمجلسه :

« والآن يا (إيجور) جاء دورك لمساعدتنا » .

- « أنا مستعد .. »

- « سيكون عليك أن تبلغ الشرطة باسم الرجل .. (جيروم سلفستر) .. إنك لن تنساه .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. »

ـ سنخبرك بأماكن دفن ضحاياه .. وستخبر الشرطة بها ..

لاحظ أن لديهم بصمات لا يعرفون صاحبها ..، وأنت ستخبرهم باسمه ومهنته والولاية التى يوجد بها الآن »

ـ « هذا ليس عسيرًا .. »

كان الوداع حارًا ، وقد أدرك (إيجور) أن الشبحين سيرحلان للأبد بمجرد أن يلقى (سلفستر) جزاءه ..

لكنه لم ينس آخر كلمة قالها الزوج قبل الفراق :

إن موهبتك الإلهية يا (إيجور) تجعلك شفافًا كالماء .. يمكنك أن تنفذ إلى الأرواح وإلى الأشباح ..، إنها نعمة .. لكنها سلاح خطر إلى أقصى درجة ، ولسوف يجلب لك متاعب كثيرة آمل أن تنجح فى اختراقها .. » ..

كان الشبح صادقًا إلى حدّ كبير ...

* * *

الجزء الثالث

(مانهاتن) ـ ١٩٥٢

- ٧ -

يا أيام المراهقة العزيزة ...

ذلك الحنين الموجود إلى شيء لا تدرى كنهه لكنك تحبه بعنف .. الحاجة إلى أن تحلق بعيدًا .. بعيدًا إلى المكان السحرى الذى تتفتح فيه زهور البرتقال ، ويتم تفتيت الأقمار لصنع النجوم منها ، حيث يبدأ قوس القزح ، وتهاجر الطيور وزفرات المحبين ، ذلك المكان الذى لم يُرسم على الخرائط بعد ، والذى تنتظر فيه الإجابة على أسئلة أبدية مثل : أين تذهب الفصول ؟ ومن هى الفتاة التى اختارها لك القدر ؟ وإلى أين تحمل مياه الجدول أوراق (التيوليب) التى رمتها أتأملك فيه ؟

عندئذ تنظر إلى القمر وتتنهد ، كأنك تستنشق أشعته الزرقاء الباردة إلى رئتيك .. وتغمغم :

ـ « رباه !.. إننى أكبر ...! » .

* * *

(إيجور) اليوم فى السادسة عشرة من عمره ..

ستة أعوام كاملة قد مرت عليه منذ أن كان فى العاشرة من عمره ، يثرثر مع الأشباح فى دار (كيلى) .

ستة أعوام منذ كتب لشرطة (ألاباما) يخبرهم بتفاصيل لا تصدق عن سائق شاحنات عجوز يدعى (جيروم) .. لقد ملأت أنباء القضية الصحف ، لكن أحدًا لم يعرف صاحب الخط الطفولى الذى سطر هذه الكلمات .

يا لها من ذكريات !

* * *

يومًا فيومًا كان (إيجور) يزداد سيطرة على مفاتيح قدرته على اختراق الأذهان ..

وهو اليوم يعرف أن هذه الموهبة ليست قاصرة عليه وحده .. فهناك آخرون فى هذا العالم يملكون هذه القدرة ، ويعرف أن اسمها هو (الإدراك الفائق للحس) ، وأن دراسات واسعة تجرى على هذا الموضوع ..

لكنه أدرك كذلك أن قدراته متشعبة .. فجزء منها هو قراءة الأفكار .. وجزء منها هو التخاطر أو (التليباثى) .. وجزء منها هو (الوساطة) أو قابلية التخاطر مع الأشباح والأجسام غير المادية .. لقد جرّب هذا الجزء بنجاح تام من قبل ..

كالعادة كانت نعمة (إيجور) هى نقمته ..

فإدراكه الفائق للحس جعله يزداد مقتًا للناس .. كل هذا الزيف والنفاق .. كل هذه الشراسة والوحشية ..

كاد يؤمن أنه لا يوجد إنسان صادق فى هذا العالم ...

وكان قد نزح مع أبويه إلى (مانهاتن) حيث التحق بالمدرسة الثانوية .. وفى مدينة كبيرة كهذه كانت النفوس أكثر تعقيداً وغموضاً .. ولم يعد هناك شىء واحد واضح ..

لكن هذا لم يمنعه من أن يشعر بلذة المراهقة الأليمة .. وأن يدرك أنه - برغم كل شىء - شاب عادى جداً طبيعى جداً ..

أغانى (الروك أندرول) - اختراع الخمسينات الوليد - وحفلات المدرسة ، وسباق السيارات بين الطلبة وبعضهم .. ومحاولة الظفر بموعد لاصطحاب فتاة إلى المرقص ..

هذه هى قواعد المراهقة الأمريكية الصارمة ...

وكان على (إيجور) أن يجارى هذه القواعد بحذافيرها ..

* * *

هناك تفصيل صغير آخر يجب أن نذكره ...

لقد حصل (إيجور) على كتيب صغير يتحدث عن محاكمات (نورنبرج) تلك المحاكمات التى أجريت بعد الحرب لقادة النازى .. وأدارها الحلفاء ...

شرع يقلب الصفحات ، وقد راحت الذكرى الأليمة تتردد فى ذهنه ...

جنرال (فون أونبرجر) ... مذنب ...

راتا تا تا تا تاه !

جنرال (هاينزفون شميدت) .... مذنب ...

(اخرس !.. إنك تثير أعصابى .. اخرس !) .. راتا تا تا تاه !

جنرال (سيدلتز جابلر) .. فارّ من الأحكام !

تصلب شعر رأسه ...

إنه لن ينسى الاسم ماعاش .. لقد سمعه من العم (أندريه) مراراً .. وظل يحاول تخيله .. كيف يبدو هذا الرجل الذى أباد أسرته بالكامل ؟ الذى دمر شارعهم وجيرانهم .. أحال الماضى والحاضر والمستقبل إلى كومة من الغبار الساخن .. والآن هو يرى صورة الرجل أمامه ..

كان يبدو كأى رجل وسيم آخر فى الأربعين من عمره .. شعر رأسه أشقر قصير .. وعلى ياقة سترته علامة (الصاعقة) وصليب (رومل) الخاص بالقوات البرية يزين صدره ..

له عينان زرقاوان نفاذتان .. وتجعيدتان توحيان بقوة الشكيمة على جانبى فمه .. الأرستقراطية الآرية كما يجب أن تكون .. حين يموت هذا الرجل سيموت وهو يبتسم فى تعال ..

ولكن كيف يمكن أن تصدق أن هذا الرجل سفاح ..؟

كانت التهمة ضده تقول : إنه ارتكب عددًا من جرائم الحرب ضد المدنيين فى (وارسو) حين كان حاكمًا عسكريًا للمدينة .

يا للامبالاة ! عدد من جرائم الحرب !.. لكن هذه الجرائم تتضمن القضاء على أسرتك وأصدقائك وجيرانك ! ما أهون الموت حين يكون مجرد خبر فى جريدة أو سطرًا فى حكم محكمة !..

ملحوظة من د . (رفعت) : يذكرنى هذا الموقف بقصة الأديب الألمانى (إريك ماريا ريمارك) المسماة (كل شىء هادئ فى الجبهة الغربية) .. حينما مات البطل فى نهاية القصة برصاص القناصة ؛ كان تقرير القيادة هو : كل شىء هادئ فى الجبهة الغربية ، أى أن واحدًا فقط مات مما لا يُعد خسارة فادحة .. برغم أن هذا الواحد كان له أصدقاء وأهل وأحلام لم تتحقق قط ..)

المشكلة الأسوأ هى أن هذا الجنرال ما زال حيًا ...

ما زال فارًا ينعم بحريته !..

لماذا لم يقبضوا عليه ؟ لماذا لم ينتقموا منه ؟

كان يعرف الإجابة : لأنه لم يرتكب مذابح ضد اليهود !

فقط هؤلاء الذين قتلوا اليهود هم الذين لاقوا جزاءهم .. وحوكموا .. بل وتم اغتيالهم ولو كانوا فى أطراف الأرض أما (سيدلتز جابلر) فهو مجرد جنرال وديع (ارتكب عددًا من جرائم الحرب) التى سرعان ما تنسى ...

وأحس (إيجور) بالمرارة ....

ثم إنه عمد إلى صورة الجنرال ، فقصها من الكتيب .. وألصقها على الجدار كما يلصق المحبّ صورة حبيبته .

كان هذا الوجه هو أول وجه يراه حين يصحو وآخر وجه يراه حين ينام ، ولقد انعقدت بينه وبين صاحبه علاقة مُعقدة من الحب والبغض .. ذات العلاقة التى انعقدت بين جند (مونتجمرى) وعدوهم (روميل) فى الحرب العالمية الثانية .. كانوا يكرهون (روميل) ويعجبون به .. ويعلقون صوره فى خزائنهم .. حتى إن (مونتجمرى) القائد الإنجليزى اضطر إلى إجراء علاج نفسى لهم قبل خوض معركة (العلمين) ..

(سيدلتز جابلر) .. لسوف نلتقى ..
أعدك بذلك إن كنت حيًا ...

* * *

لم يكن (إيجور) من الشباب المرموقين فى المدرسة ، أولئك الذين يصفهم التعبير الإنجليزى بـ (ذوى الشعبية) .. فهو ضعيف الجسد لا يمارس الرياضة ، ولم يكن ذا وسامة ملحوظة ..

لكنه كان متفوقًا فى الدراسة إلى حدّ ملفت للأنظار ، وهذا يعود طبعًا إلى موهبته الخاصة ..

فحين يقول المعلم وهو يبتسم بخبث :

ـ « سيكون الامتحان مفاجأة لكم .. »

كان (إيجور) يسمع صوت الرجل يتردد فى عقله بوضوح تام :

ـ « ترى ماذا يفعلون حين أطرح سؤالاً عن ميكانيكا الكمّ عليهم ؟ »

وكان الامتحان يصل إلى عقله كاملاً ، دعك بالطبع من أفكار المحيطين به فى أثناء الامتحان ذاته ..

لم يكن يعتبر هذا غشًا .. فهو لم يبذل جهدًا فى معرفة ما لا يجب أن يعرفه .. كانت الأفكار تطرح نفسها طرحًا ..

* * *

هناك شخص ما لكل شخص .. وكانت (جلاديس) هى الشخص المناسب لـ (إيجور) .

الفتاة التى لم تنظر إلى عضلاته الواهنة ، ولا أنفه غريب الشكل .. لكنها نظرت إلى ذكائه وإلى عينيه الزرقاوين الشفافتين حتى إنها لترى روحه من خلالهما .

قالت لصديقتها يومًا وهى تحاورها :

ـ « إن هذا الحزن فى عينيه هو ما يشدنى إليه .. إنه بحاجة لشخص ما .. وأنا بحاجة إلى من يحتاج إلىّ »

راحت تلاحقه بكل تلك الأساليب الرقيقة التى يمكن لمراهقة خجول أن تلاحق بها مراهقًا أكثر خجلاً ..، وفى الصف كانت هى الوحيدة التى تتحمس لإجاباته .. وتضحك لدعاباته .. وتبدى تعاطفًا غير عادى مع زلاته .

كيف كانت (جلاديس) تبدو ؟

لا أرى داعيًا لتضييع الوقت فى وصف لون شعرها وعينيها وثيابها .. إلخ ، فهذا لا يعنى أحدًا سوى (إيجور) ... المهم هو أنه كان معجبًا بها هو الآخر ..

وكان لها عقل صافٍ كقطرة ندى .. عقل دخله كثيرًا ، وشمّ فيه رائحة زهور (الجلاديس) ... وعرف أن صاحبته من البشر القلائل الذين هم فى داخلهم أجمل من خارجهم ...

الواقع أنها كانت أيامًا لا تُنسى فى حياة (إيجور) .
حفلات المدرسة الصاخبة حيث يصطحب (جلاديس) ..
ويدوى صوت المطرب الرخيم مرددًا « دعنا نرقص (التويست) ثانية » ، عندئذ كانت (جلاديس) تدور بعودها النحيل يمينًا ويسارًا .. وشعرها المعقوص يتبعها متأخرًا ثانيتين .. دائمًا متأخرًا ثانيتين .. وعلى وجهها البرىء الماكر قليلاً — لا يدرى كيف — ترتسم ضحكة من القلب ..

عندئذ كان يشكر الله على أنه وُجد فى هذا العالم ، الذى هو (أفضل العوالم المحتملة) ..

وبمرور الوقت تلاشى وجه (سيدلتز جابلر) من أمام عينيه ؛ فلا يرى سوى وجهها ....

« هلموا .. دعنا نرقص (التويست) ثانية ..
كما فعلنا الصيف الماضى ... »

* * *

كم دام هذا الحلم ؟

دام عامًا أو أكثر قليلاً .. ولماذا انتهى ؟

انتهى لأن الربيع ينتهى دائمًا .. ومنذ بدء الخليقة ..

كان هناك (هارى كارلسون) .. جاء إلى المدرسة فى الشهر الأخير قادمًا من ولاية أخرى ....

(هارى) هذا يملك جمال الشياطين .. بالتأكيد تبدو الشياطين جميلة .. وإلا فكيف تجعل الناس يضلون طريقهم ؟

كان فارع القامة عريض المنكبين .. يزن أرطالاً لا بأس بها ، ويجيد قيادة سيارته الفاخرة بسرعة البرق ، دعك من تفوقه فى لعبة كرة القدم إلى الحدّ الذى جعل المدرسة كلها تبحّ من الصراخ .. (بالمناسبة : كرة القدم الأمريكية لا علاقة لها بما نعرفه نحن .. بل هى لعبة عنيفة جدًا يتم ارتداء الدروع الواقية فيها واستعمال اليدين ... أما كرة القدم التى نعرفها فيطلقون عليها اسم (ساكر) .. ولا يميلون إليها كثيرًا) ..

كانت الفتيات جميعًا رهن إشارة (هارى) ، وكل واحدة تتمنى أن يحبها هى ...

لكنْ ـ كما قلنا ـ هناك شخص ما لكل شخص ..

وكانت (جلاديس) هى الشخص المناسب لـ (هارى) .

* * *



لكن ـ كما قلنا ـ هناك شخص ما لكل شخص ..
وكانت (جلاديس) هى الشخص المناسب لـ (هارى) ..

ـ ٨ ـ

حين استطاع (إيجور) أن يخترق ذهن (جلاديس) ، لم يكن ما سمعه باعثًا على الاطمئنان ..

« إن هذا الـ (هارى كارلسون) وسيم حقًا .. وسيم وقوى ويعرف كيف يعالج أموره .. إن الفتاة لتشعر بالاطمئنان معه .. »

ثم تنهدت تنهيدة عقلية كادت تذيب خلايا مخ (إيجور) :

« ليت (إيجور) يملك ربع مزاياه .. إن الرقة وحدها لا تكفى كى يصير الرجل رجلاً .. »

وشاعرًا بالغصة فى حلقة ؛ حاول (إيجور) اختراق عقل (هارى) الذى كان جالسًا فى الصف يرمق (جلاديس) فى إصرار وتركيز .. دون أدنى متابعة لما يقال من المعلم المتحمس ..

ولم يكن ما سمعه مريحًا :

« لذيذة .. أليس كذلك ؟! »

شعر (إيجور) بتعاسة بالغة .. لماذا اختارها هذا الوغد دون كل حسناوات الصف اللواتى يناسبنه تمامًا ؟ إن الفتاة هشة ولا تحتمل هجمات هذا البطل المغوار ..

إن ما بينها وبين (إيجور) هامس لم يجرؤ واحد منهما على تسميته حبًا بعد .. فلماذا هى بالذات دون غيرها ؟! ولماذا (إيجور) دون سواه ؟

وكانت الإجابة سهلة .. إذ سرعان ما أدرك (إيجور) أن الفتى يريد انتزاع (جلاديس) منه لمجرد أنها له .. كان من هؤلاء الذين يهمهم أن يحرموا الآخرين سعادتهم لمجرد التسلية ..

بالإضافة إلى أن الفتى كان يحقد عليه لتفوقه ، وهو الصراع المحتم بين سادة العضلات وسادة الأفكار .. كلاهما يمقت الآخر ويعتبره عدوه الطبيعى .. وفى كل صف دراسى يتكرر هذا الموقف : يتحرش أقوى الطلبة بأذكاهم ... كأنما القوى يقول للذكى : دعنى أر ما صنعت بذكائك ..

استطاع (إيجور) أن يعرف نهاية هذا التودد من (هارى) ، ولسوف يتخلى عن (جلاديس) بمجرد أن تتخلى هى عن (إيجور) ..

« إنها رقيقة لكنها ليست طرازى حتمًا .. »

وحدثت الكارثة ..

صارت (جلاديس) أقل شغفًا بكلام (إيجور) وأقل تركيزًا .. لم يعد يجدها على الهاتف حين يطلبها فى

الموعد اليومى .. وحين يمازحها لم تكن تظهر ما يدل على فهم دعاباته .. بل تعتبر هذا كلامًا عاديًا تنتظر نهايته ... وغدت أفكارها أكثر سوادًا :

« يا للبائس ! كيف سيفهم ؟ كيف سيتحمل ؟ إنه لن يجد مغفلة أخرى بعدى ، وسيموت وحيدًا كالقملة ..! » .

والآن لم يعد الناس يرون (جلاديس) إلا مع (هارى) .. يسير بجسده الرياضى جوارها ، ويعاملها كإحدى أميرات القصص ... وكان سرور الأنوثة وكبرياؤها يجعلانها تبدو كبطة فخور ، وهى تمشى جواره وتتجاهل الحسد فى عيون البنات أترابها ...

وعرف الجميع أن (إيجور) قد انتهى ...

* * *

(إيجور) نفسه هو أول من عرف هذا ؛ لأنه اخترق العقلين وعرف كل شىء قبل أن يحدث شىء ..

آثر أن يبتعد لكنه قرر أن يخوض مغامرة أخيرة يحاول بها إقناع (جلاديس) .. اتصل بها هاتفيًا طالبًا اللقاء أمام دارها ..

حاولت التنصل بفتور لكنه أصرّ ..

ـ « من فضلك يا (جلاديس) .. ستكون هذه آخر مرة .. » .

وضع السماعة قبل أن تجد ردًا ..

وبعد نصف ساعة وجدها واقفة أمام دارها ، وقد دست يديها في جيبي سروالها وراحت تلوك قطعة من العلك ، واستندت بكوعها إلى صندوق البريد لتبدو مسترخية .. لكنه رأى قلقها فى ذهنها ...

قال لها وهو يستند إلى الجانب الآخر من الصندوق :

ـ « (جلاديس) .. أنت لم تعودى لى .. أليس كذلك ؟ »

فى ضجر هتفت :

ـ « أوه ! (إيجو) .. لم يتغير شىء .. نحن صديقان .. وسنظل كذلك »

ـ « لم أردك صديقة .. »

ـ « ستجد ألف (جلاديس) أفضل منى .. »

اللفظة الخالدة التى تقولها النساء منذ ملايين السنين لرجال لا يملن إليهم .. لو كانت هناك (جلاديس) أخرى لما كانت هناك مشكلة .. لكن هناك واحدة فقط فى العالم .. وقد ضاعت !

ابتلع ريقه وقرر أن يلقى ورقته الأخيرة :

ـ « (جلاديس) .. إنه ينوى أن ينهى علاقته بك ، بمجرد أن تصيرى طوع بنانه .. »

ـ « هذا ما يُقال دومًا ! »

ـ « أنا لا أتكهن .. أنا متأكد ..! »

ـ « وما الذى يجعلك كذلك ؟ »

ـ « لأن .. لأننى أقرأ الأفكار .! »

كما هو متوقع ضحكت فى عصبية .. فهذا المعنى يمكن أن يُفهم بشكل مجازى .. ولم تبدُ على استعداد لتصديق حرف ... قال لها وهو يبلل شفتيه الجافتين بطرف لسانه :

ـ « منذ الطفولة وأنا أقرأ الأفكار ولا أدرى كيف .. هل تريدين أن أقول لك ما يجول بذهنك الآن ؟ »

ـ سيكون هذا مسليًا ..

ـ « تفكرين فى المعنى التالى : إن فرصة أن يحبك فتى مثل (هارى) لا تأتى سوى مرة واحدة فى العمر ، وأنت لن تدعيها تضيع من أجل بولندى عاطفى .. أليس كذلك ؟ »

نظرت له فى دهشة للحظة .. ثم هزّت رأسها :

ـ « هذا لا يحتاج إلى ذكاء كى تخمنه .. »

ـ « حسن أنت الآن تعبثين فى جيبك متسائلة عن كنه هذا الشىء المعدنى الموجود بداخله .. هل هذا صواب ؟ »

مدت يدها بعد أن أخرجتها من جيبها .. وتأملت المفتاح الذى فى كفها .. وغمغمت :

ـ « إنه مفتاح (لورين) .. لقد نسيته معي .. ولكن كيف خمنت ؟ »

ـ « لأننى أقرأ الأفكار .. هل نسيت ؟! »

فتحت فمها لتتكلم .. لكنه بادرها بالكلام أولاً :

ـ « الآن ستقولين : أتوسل إليك يا (إيجور) .. دعني وشأني .. أنا لم أعد طفلة .. ولم أعد أريدك بعد اليوم ... هل أصبت ؟»

نظرت له فى استسلام .. وتنهدت :

ـ « حسن .. ربما كنت تملك نوعًا من الحاسة السادسة .. أو أن وجهى مرآة لأفكارى أكثر مما ينبغى ...، هذا لن يغير شيئًا من قرارى :

كُفّ عن ملاحقتي وانس الماضي .. أوكاى ؟ »

تنهد هو أيضًا فى استسلام :

ـ « لقد نلت حريتك ... »

واستدار مبتعدًا ....

هل هى الأمطار أم الدموع تلك التى تبلل خديه ؟ ليس واثقًا .. فلا فارق هنالك .. سواء أكان هو من يبكى أم السماء ..

* * *

ـ « لقد تخلى عنها ! »

راتاتاتاتاه ! « هذه الجهة مغلقة ! » .. جنرال (سيدلتز جابلر) فارّ من (نورنبرج) .. « هيه يا أصفر .. إن البولنديين جبناء .. »

ويستدير مدفع الدبابة ببطء نحوه ..

راتاتاتاتاه ! بوم !.. « اخرس »

ـ « إن (هارى) سريع الملل .. لم تعد تمثل له شيئًا »

ـ « هى ليست طرازه على كل حال ... »

راتاتاتاتا !.. « اخرس .. إنك تثير أعصابى .. اخرس ! »

بدأت الأقاويل تنتشر .. وراحت (جلاديس) تذبل .. سرى الشحوب إلى وجنتيها وصارت أكثر صمتًا وشرودًا .

اكتسبت ملامحها طابع الخبرة المروعة .. طابع من عرف قبل الأوان ما كان ينبغى ألا يعرفه ...

ذات الطابع على وجه (إيجور) ، وعصابة (بيل) بعد حادثة البيت المسكون إياها ....

لقد تخلى عنها (هارى) سريعًا .. وبدون أن تهتز له شعرة ..

وأدرك (إيجور) آسفًا أنها تحطمت إلى الأبد ، وأنها تحتاج إلى عشر سنوات حتى تثق برجل آخر ..

هذا إن كان لها أن تثق بأحد ثانية ، عرف كذلك أنها لن تعود له أبدًا .. فكرامتها والشعور بالذنب يحجبانها عنه ...

بهذه السهولة والبساطة تحولت أحلى سنى عمرها إلى أتعس وأظلم فترة تمر بها .... لقد ذبحها (هارى) ذبحًا ..

راتاتاتاتا !..

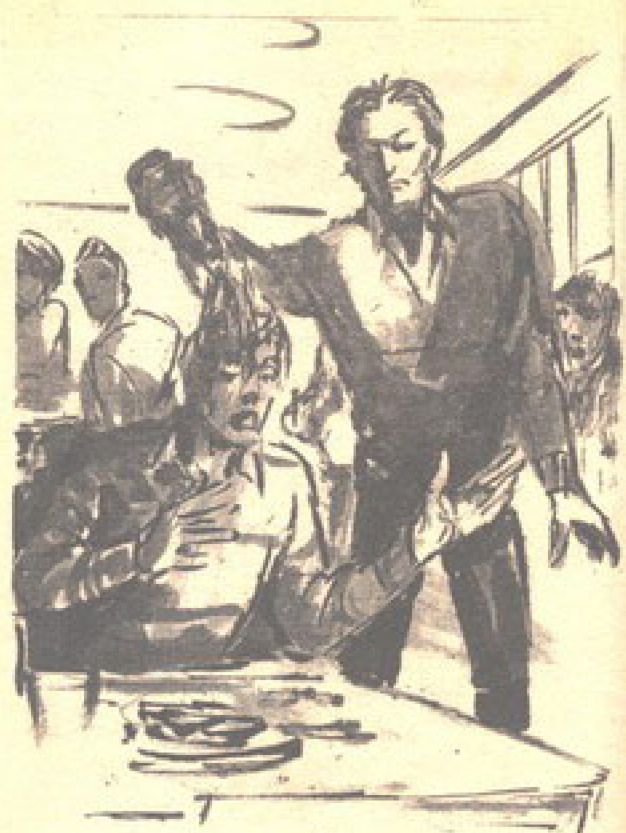
« اقتلوهم وادفنوهم هنا !.. » .. « هذه الجهة مغلقة ! » .. بوم !!

* * *

(هارى كارلسون) الوسيم محطم القلوب يجلس فى كافتريا المدرسة يمزح مع رفاقه ، ويلتهمون ساندوتشات (الكلاب الساخنة) ويجرعون الكولا ، ويثرثرون .. عن الفتيات قطعًا ..

كان هذا حين مشى (إيجور) فى هدوء إلى المائدة التى يجلس إليها .. لم يلاحظ أحد أنه تناول زجاجة (الكيتشاب) ــ الصلصة الحارة حتى لا يغضب المعرّبون ــ ورفعها .. وبكل إصرار أفرغها فوق رأس (هارى) ، الذى لم يجد الوقت الكافى ليندهش ...

ساد الصمت المكان ...



وبكل إصرار أفرغها فوق رأس (هارى) ، الذى لم يجد الوقت الكافى ليندهش ..

وثب (هارى) وفمه ما زال مليئًا بالطعام ، والشطيرة فى يده ، وقد تلوث رأسه ونصفه العلوى بالصلصة ..

ـ « هل ؟ هل جننت ؟ »

كان رأس (إيجور) عند صدره .. كفه فى حجم رأس (إيجور) .. صفعة واحدة ستطيح بالأخير إلى الحائط ....

لكنه تمالك نفسه ..

جذبه من مجمع ياقتى سترته ليدنيه منه ، وفى عينيه معنى القتل .. وقرب أنفه من وجهه وصاح :

ـ « أنا لا أريد ارتكاب جريمة ! »

كان واضحًا معنى ما يقول ، فهو قادر على إزالة (إيجور) من على ظهر البسيطة دون جهد ...

قال (إيجور) فى هدوء :

ـ « أنا أتحداك يا (هارى كارلسون) .. يجب أن تدفع ثمن إيذائك لشخص معين يهمنى أمره .. »

بدا الذهول على وجه (هارى) ..

ـ « تت .. تتحدانى ؟ هل تمزح ؟ »

ـ « بالعكس .. لقد أهنتك وعليك أن تقبل التحدى لحفظ كرامتك أمام الجميع ! »

ـ « عم تتحدث بالضبط ؟! »

ثم نظر إلى من حوله .. وقهقه فتناثر الطعام من فمه :

ـ « يا شباب .. هذا الفتى يدعونى إلى المبارزة ! »

ـ « هو ووووووه ! »

ـ « اقتله يا (هارى) ! »

* * *

« يا شباب .. لقد جرؤ على ضربى .. تصوروا هذا ! لقد جرؤ البولندى على ضرب (بيل هاكمان) !! »

راتاتاتاتا ! بوم !.. راتاتاتاتات !.. بوم !

* * *

قال (هارى) وهو يسترخى فى مقعده ، ويجفف الصلصة من على شعره ووجهه بالمنشفة :

ـ « أية مبارزة ؟ بالسلاح أم بقبضات اليد ؟ أنت تعرف أننى قادر على سحقك دائمًا .. »

قال (إيجور) بذات الهدوء :

ـ « إن معك حقًا فى هذا .. لهذا أقترح طريقة أخرى لتصفية الحساب تتيح تكافؤ الفرص .. إنها تعتمد على الشجاعة فحسب ، الشجاعة ولا شىء آخر .. »

ـ « سأكون الأفضل .. كالعادة ! »

كان يسير مندفعًا نحو المصيدة التى نصبها له (إيجور) ..

مصيدة الهلاك ....

ـ ٩ ـ

اللقاء فى معمل الكيمياء ـ بعد أسبوع :

شد ما يمقت (إيجور) (هارى) ! ليس الأمر نابعًا من الغيرة بل هو نابع من كراهيته للقسوة .. القسوة فى كل صورها .. إنه يمقت (جابلر) لهذا كره (بيل) وشنأ (هارى) .. إنهم جميعًا يملكون الملامح ذاتها .. ذات النظرات الباردة التى لا تعبأ بآلام الآخرين .. ذات الصلافة والإحساس بالقوة ..

كان عليه أن يدمر (سيدلتز جابلر) ..

لهذا بدأ بتدمير (بيل) .. والآن جاء دور (هارى) .. كلها درجات سلم تقود إلى (جابلر) ....

* * *

كان المكان مظلمًا فلم يجسر أحد على إضاءة النور الكهربائى .. لكن الكشافات كانت تؤدى الغرض ...

كشاف فى يد (إيجور) وكشاف فى يد (هارى) ، وكشاف فى يد (إميل) صديق (هارى) والذى جاء كشاهد على ما سيتم .. وكان هناك رجل من أصل بولندى يُدعى (سوبار) دعاه (إيجور) كشاهد له ..

كان (هارى) يبتسم بثقة لكن (إيجور) سمع أفكاره :

« رباه !.. ماذا جاء بى ها هنا ؟.. إن المكان مخيف ليلاً ! »

قال (إيجور) بعد ما انتهت واجبات التعارف :

ـ « كما قلنا آنفًا يا (هارى) .. الطريقة الوحيدة للمبارزة بيننا هى الاعتماد على الشجاعة والحظ .. الأولى هى المقياس الوحيد لرجولة الرجل .. والثانى يسميه البعض حظًا وأسميه أنا عناية السماء .. »

ـ « اختصر .. »

قالها (إميل) فى نفاد صبر وهو يتأمل المكان فى اهتمام ..

ستكون كارثة لو عرفت الإدارة بأمر تسللهم إلى المعمل ليلاً .. إن (إيجور) هذا مخبول حقًا ، ولولا حماس (هارى) وإصراره على التحدى ما قبل (إميل) أن يأتى معه ها هنا ..

قال (إيجور) فى نفاد صبر وقد ضايقته أفكار (إميل) :

ـ « إن ما سنقوم به حالاً لهو اختبار للشجاعة والحظ معًا .. هات الزجاجتين يا (سوبار) .. »

مد البولندى يده إلى جيب سترته ، فأخرج قارورتين من النوع المستعمل فى معامل الكيمياء .. ووضعهما على المائدة .. كانتا تلتمعان بشكل شرير فى ضوء الكشافات ..

قال (إيجور) :

ـ « سنلعب الآن اللعبة القديمة الشهيرة : من يشرب السمّ ؟.. إن واحدة من هاتين القارورتين لا تحوى سوى الماء .. والأخرى تحوى تركيزًا عاليًا جدًّا من سمّ (السيفين) الذى يستخدم كمبيد حشرى .. ، سيكون على كل منا أن يجرع زجاجته فى نفس اللحظة تقريبًا أمام الشاهدين .. وعندئذ سيموت أحدنا .. وهو من يفتقر إلى الحظ ! »

هتف (إميل) فى حنق وهو يجذب ذراع صديقه :

ـ « يا للسماء !.. ويظن أننا سنشارك فى هذا السيرك ؟ هيا بنا يا (هارى) ودع هراءهما لهما .. »

كان (هارى) مبلبل الفكر حين أضاف (إيجور) :

ـ « وهنا يأتى دور الشجاعة .. إن من يرفض هذا الاختيار سيحكم على نفسه بالجبن ، وتعرف كل المدرسة الثانوية أنه رعديد فرّ من التحدى .. »

هتف (هارى) وهو يرمق الزجاجتين :

ـ « لكن الشرطة .. الناجى لن يفلت من الشرطة »

ـ « بالعكس .. إن المراهقين ينتحرون لسبب أو لآخر .. أنا بسبب فشلى فى الحب وأنت بسبب فشلك فى الدراسة .. ستقول الشرطة إن المتوفى تسلل إلى المعمل وابتلع زجاجة (السيفين) بعيدًا عن الأنظار .. أما الباقون منا فسوف يلزمون الصمت .. لأنهم قد تورطوا فى الأمر بما يكفى .. »

صاح (إميل) فى عصبية :

ـ « هيا بنا يا (هارى) .. دعك من هذا .. »

ابتسم (إيجور) فى ثقة ودس يديه فى جيبه :

ـ « ليكن .. لو كنت مكانك يا (هارى) لما جازفت مع بولندى مجنون مثلى .. سأعود إلى دارى وأنعم بعشاء دسم ، لكنى غدًا سأخبر كل مخلوق فى الكون عن قصتنا الصغيرة .. »

لو كان (هارى) أكبر بعشر سنوات لترك كل هذا .. لكنه كان فى عنفوان الشباب حيث تغلى حمية الجاهلية وشهوة التحدى فى الدماء ، ويصير الموت نفسه مقبولاً حتى لا يتهم بالتراجع .. كان (إيجور) يعرف أنه سيقبل ..

ـ « أيها القذر !.. إنك قد وضعتنى فى شرك لا مفر منه »

كانت هذه من (هارى) طبعًا ..

هنا توقف (هارى) وابتلع ريقه وقال فى ريبة :

ـ « وما الذى يضمن أنك لم تتلاعب بالقارورتين ؟ يمكنك دومًا أن تضع علامة على القارورة المأمونة »

قال (إيجور) :

ـ « ترى أن القارورتين متماثلتان فى الحجم والشكل .. وعلى كل حال يمكنك أن تختار قارورتك أنت أولاً فينتفى الشك .. »

هتف (إميل) فى عصبية للمرة الرابعة :

ـ « إذن ربما جعلك تختار القارورة السامة بالإيحاء »

ـ « كفاك سخفًا يا (إميل) .. »

ثم إن (هارى) رفع رأسه وأخذ نفسًا عميقًا :

ـ « ليكن .. هيه !.. أنا أقبل التحدى لمجرد أن أعلمك أننى أفضل منك .. وليكونن الحظ فى جانبى كما كان دائمًا .. »

ابتسم (إيجور) فى توجس :

ـ « هذه روح طيبة .. أعتقد أنك ـ على الأقل ـ رجل شجاع يملك أحشاءه .. »

قال (إميل) فى تعاسة وهو يتأمل الزجاجتين :

ـ « لحظة .. إن رائحة (السيفين) مميزة بالتأكيد .. ويستطيع من يشمها أن يتوقف فى آخر لحظة .. »

ـ « نقطة جيدة .. » ـ قال (إيجور) ـ « ولهذا سيسد كل منا أنفه بالقطن قبل فتح قارورته .. »

وأضاف وهو يتأمل العرق البارد على جبين (هارى) :

ـ « يجب أن أصف لك ما ينتظر الضحية .. أولاً عرق غزير ينهمر على الجبين .. ثم القىء .. والإسهال .. بعدها تضيق الشعب الهوائية وتبطئ نبضات القلب ، وتتسع الحدقتان .. ثم تبدأ تشنجات مريعة تنذر بالغيبوبة التى لا صحو منها .. »

ابتلع (هارى) ريقه .. وغمغم فى ضيق :

ـ « وفرّ معلوماتك لنفسك .. ولنبدأ .. »

ومدّ يده ليختار قارورة ..

« هذه ؟ لا .. لا .. تبدو خبيثة الشكل .. ربما هذه ؟ ولم لا تكون الأولى ؟ فلتأخذنى الشياطين إن لم تكن الثانية .. ولكن .. لحظة .. إن هناك قطرات جافة على هذه الزجاجة .. لابد أن زجاجة السمّ تم ملؤها بحذر باستعمال قمع .. أما زجاجة الماء فتم ملؤها من الصنبور .. هه ؟

معنى وجود قطرات جافة أن هذه هى زجاجة الماء .. لابد أن الأمر كذلك ! »

وفى ثقة اختار الزجاجة ذات الجدار الملوث ..

تناول (إيجور) الزجاجة الأخرى فى صمت جنائزى .

وفى تؤدة أخرج (سوبار) قطعًا صغيرة من القطن ليسد بها فتحتى أنف كل منهما ..

وأمام عينى (إميل) المذهولتين رفع (سوبار) يده ، معلنًا بإنجليزية رديئة :

ـ « حان الوقت .. اشربا ! »

* * *

راتاتاتاتا !.. بوم !..

« اخرس .. إنك تثير أعصابى .. اخرس ! »

* * *

الآن يقف الفتيان يتبادلان النظرات ، وقد أفرغ كل منهما قارورته فى جوفه .. يرسم (هارى) ابتسامة واثقة على وجهه ويتأمل خصمه .. ترى من الذى سيمسك ببطنه ويموت الآن ؟

بعد دقائق ثلاث قال (إيجور) فى تؤدة :

ـ « لقد تعمدت رش قطرات من الماء على قارورة السم .. كنت أعلم أنك ستلاحظها !! »

« هيه ؟ تعمد ذلك ؟ هو بالتأكيد يمزح .. إذن أنا .. لا .. لا يمكن .. إنها دعابة ثقيلة منه .. ولكن ما هذا العرق الذى يغمر جبينى ؟ أريد أن أ .. أقىء ىء ىء ىء .. »

ظل (إيجور) يرمق (هارى) فى ثبات وأردف :

ـ « أشكرك يا (هارى) على شجاعتك .. لكنى أريد منك ـ مع سكرات الموت ـ أن تتذكر وتندم على كل دمعة سالت من عينى (جلاديس) أو عينى .. أريد منك فى الجحيم أن تذكر أنك حطمت حياتينا .. »

وضحك فى وحشية ..

فى اللحظة التى التوى فيها (هارى) على بطنه .. وفى ثوان أفرغ ما بأحشائه .. وعلى الأرض سال خيط من طرف سرواله لم يحتج أحد للتساؤل عن كنهه ..

أمام عينيه الذابلتين المذهولتين رأى (سوبار) يخرج من جعبته كاميرا ذات فلاش يلتقط بها صورًا له .. كليك ! كليك !

« المجنونان ! إنهما يصوران لحظات مصرعى ! هل هناك قسوة بهذه الدرجة حقًا ؟! »

وراحت شعب رئتيه تصدر ذلك الأزيز المتحشرج الذى (هواء !.. أريد هواء !)



هكذا صار المعمل بركة من القيء والإسهال ..

أثار هلع (إميل) فصاح وهو يركض إلى الباب :

ـ « إسعاف !.. طبيب !.. إنه يموت ! »

قال (إيجور) للمتحضر وهو يجمع حاجياته المبعثرة في المكان ، وينتزع قطعتي القطن من أنفه وأنف (هاري) :

ـ « إن الأمريكان لخاسرون سيئون .. هو ذا صاحبك لم يقبل قواعد اللعبة كما رسمناها .. لن أعطلك كثيراً يا صاحبي لأننا سنفرّ هاربين كما تعلم .. نلقاك في الجحيم ! »

« لا .. لا تتركاني .. إنني أووووع ! »

هكذا صار المعمل بركة من القيء والإسهال ..

وأمام عينيه الخابيتين وهو يهوى أرضاً ، رأى (هاري) البولنديين يفران .. ولم ينسيا أن يلتقطا له صورة أخيرة ....

* * *

في المساء التالي قال مدير المدرسة لزوجته :

ـ « لم أعد أفهم هؤلاء الشباب .. تصوري (هاري) هذا .. بطل رياضي بكامل لياقته يتسلل إلى المعمل ليلاً .. لماذا ؟ لاحتساء زجاجة من الصودا .. والغريب أنه ملأ وصديقه الدنيا صراخاً .. وطلب الإسعاف ليجدوه

قد تقايأ ما بمعدته كلها .. وأغرق المعمل بالإسهال ؛ مؤكدًا أنه شرب زجاجة من (السيفين) السام .. »

ـ « وماذا حدث ؟ »

ـ « لا شيء .. غسيل المعدة لم يجد سوى الصودا ! .. قال هراء كثيرًا عن البولندى (إيجور) وعن مبارزة من أجل فتاة .. لا أفهم حرفًا من كل هذا .. »

قالت وهى تطفئ المصباح بجوار فراشها :

ـ « إن الشباب هو الشباب .. وأنت؟ ألم تكن بهذا الخرق حين كنت فى عمرهم ؟ »

ـ « ربما .. لكنى لم أشرب الصودا فى معمل مظلم قط .. »

* * *

وجلس (إيجور) فى نافذة داره يرمق الطريق .. ثمة طفلة على دراجة تحاول العبور ... وكلب صغير يبصبص بذيله .. وعصفور يدندن على غصن شجرة .. السلام ...

هكذا خلق الله العالم ليبقى .. هكذا أراده الله أن يكون .. ويجب أن يظل كذلك حتى لو حرقنا الأشرار أحياء ..

لقد انتهى (هارى) للأبد ...

كل المدرسة تعرف قصته الآن .. ورأت صوره وهو يتلوى ويقىء لمجرد أنه شرب بعض الصودا التى حسبها سامة ..

لكم ضحك رجال الإسعاف .. وضحك الأطباء .. ثم ضحك الطلبة حين بلغتهم القصة .. أى رعديد هذا !..

لكنهم لم يعرفوا أن (إيجور) هو من أوحى للفتى بكل هذا .. اخترق عقله وزرع فيه الإحساس بالغثيان .. ورغبة الإسهال والألم .. والخوف ..

حتى غدا كل شيء حقيقيًا مريعًا ....

كانت زجاجتا الصودا جيدتين .. لكن حين يمتزج الإيحاء بالترقب تصير قطرة الماء لها قوة الأحماض وخطرها ..

لقد صار (هارى) هو مهرج الصف .. بعدما كان زعيمه ..

ارتسم على وجهه ذلك التعبير .. تعبير من عاش أقسى الخبرات مبكرًا جدًا ، واعتزل الحياة الاجتماعية .. ولم يعد أحد يعبأ به ..

لقد ذبل كما ذبلت (جلاديس) بسببه يومًا ما ...

والانتقام بعد هذا ـ الحق أقول ـ كان ضروريًا .. وكان (إيجور) عادلاً فلم يقتله برغم أنه يستحق ميتتين ..

* * *

كان (إيجور) يكبر ...
وغدًا يأتى دور (سيدلتز جابلر) ..
سيسحقه كما سحق كل الأشرار فى حياته ، بعدما انتهى ذلك الطفل الوديع إلى الأبد ..
فقط أين هو ؟ وماذا يفعل الآن ؟..
كيف سيكون الصراع بينهما ؟
هذه هى نهاية الجزء الثالث من القصة ، وفى الرواية القادمة نستمر مع (إيجور) فى فترة نضجه ... ونعرف أكثر عن موهبته ونعرف كيف ظفر بها ... كما سنعرف أن هناك آخرين مثله ربما يفوقونه فى هذه الموهبة ... سيكون جزءًا شائقًا يصير فيه (إيجور) ضيفًا فائقًا للعادة فى عالم ... ما وراء الطبيعة .

د . رفعت إسماعيل
القاهرة



روايات مصرية للجيب

٢٢٧٦٩

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة إيجور

إن (إيجور) يجيد الاختراق .. (إيجور) يسمعهم يفكرون .. (إيجور) يعرف نواياهم .. (إيجور) يعرف كيف يجتاز ردهات العقل البشرى المعقدة دون أن يضل طريقه .. من هو (إيجور) ؟ كيف صار هذا الشخص المخيف ؟ إن لهذا قصة طويلة تبدأ كما يلى ....



د . أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الجنرال العائد

الثمن فى مصر ١٥٠

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع